وزارة الثقافة

السياحة المنصورية في الأمصار الغربية

بولس السمعاني

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

السِّياحة المنصوريَّة
في
الأمصار الغربيّة

تأليف: بولس عبده السمعاني

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٠٧

عن مطبعة الآباء الفرنسيّين في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف:بولس عبده السمعاني
اسم الكتاب: السِّياحة المنصوريَّة في الأمصار الغربيّة
الطبعة الأولى: ١٩٣٦ عن مطبعة الآباء الفرنسيِّين في القدس

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - شادية الخطيب
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

السِّياحة المنصوريّة
في
الأمصار الغربيّة

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

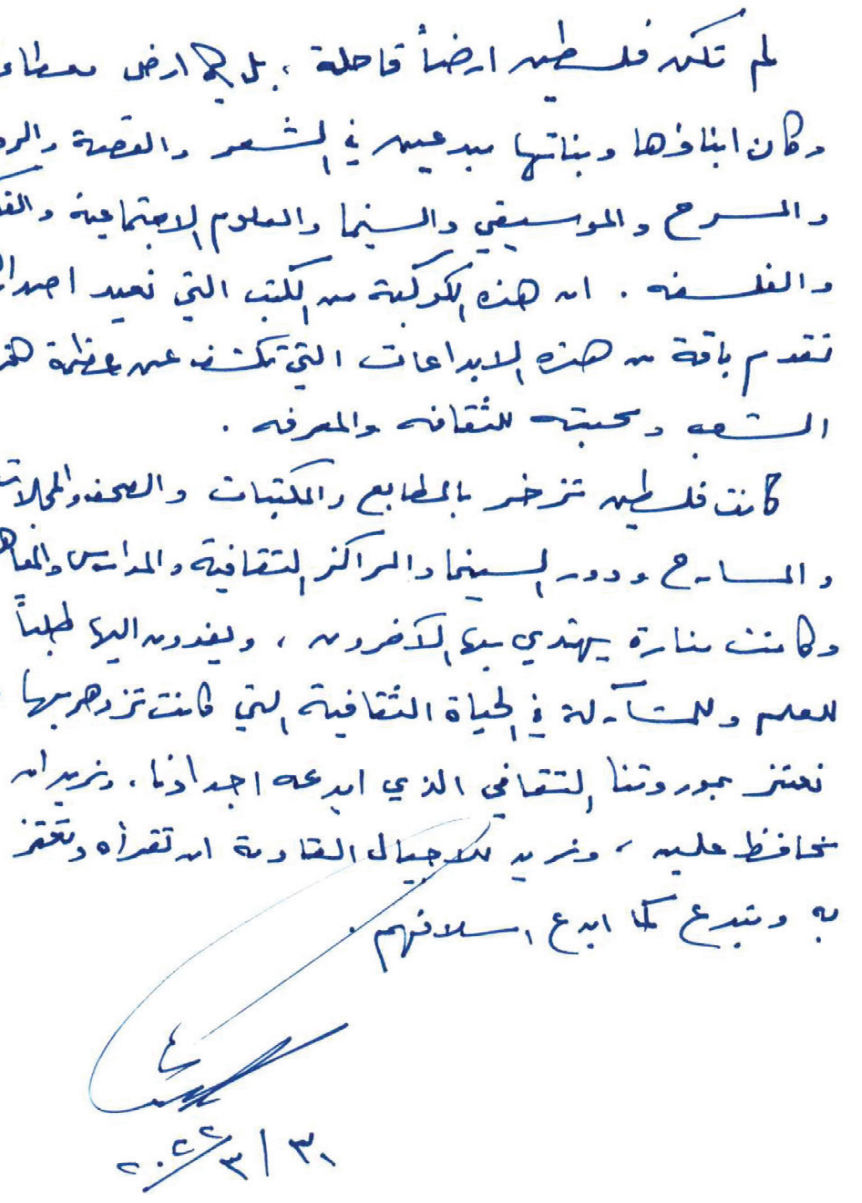
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل كانت ارض معطاءة
وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة . انه لمن الكرامة ان الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عمق وغنى هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون ، ويفدون اليها لطلب
العلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .
نعتز جميعنا بتراثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا . ونريد ان
نحافظ عليه ، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم .

٢٠٠٥/٢/٣٠

توطئة

•••

أمّـا بعـد فقـد طلـب إليّ بعـض المعـارف. مـن أربـاب الآداب والمعـارف. أن أضـع للناشـئة العربيـة. في هـذه البـلاد الفلسـطينية روايـة أنحـو بهـا نحـو الأعاجـم في لطائـف رواياتهـم الاخباريـة. بحيـث يتفهـون بملحهـا التاريخيـة. ابّـان فراغهـم مـن المهـام والمـدارس. ويتأنسـون بطرفهـا الجغرافيـة في الأنديـة والمجالـس. فرأيـت إجابـة دعوتهـم ضربـة لازب، وقضـاء لبانتهـم مـن الـلازم الواجـب، حتـى إذا أعملـت الرؤيـة، وأجلـت الفكـرة المليـة، في محـور تـدور الروايـة عليـه، ومقصـد تنـصرف غايتهـا إليـه. رأيـت أن في رحلـة في الرفعـة والوجاهـة، وصاحـب الخطـر والنباهـة، منصـور بـك قرمنـط لنـدي أهـم موضـوع، وأفيـد مـشروع. يفسـح للـيراع في مجلـس القرطـاس مجـالاً، ويفـرج للقلـم في موقـف المهـارق مقامـا جـلالاً. وذلـك لأن جوّالتنـا رعـاه اللـه قـد طـوَّف في أشـهر عواصـم الخافقـين طوافـاً. وجـدت في وصفـه مـن الفوائـد والنكـت مـا دعـاني إلى أن أرفـع عنهـا للمسـتطلعين سـجافاً. ليرتعـوا في مجـالي بهجتهـا، ويسـتمتعوا بدفائـن محبتهـا. ثـم لأنـه أعـزه اللـه عـلى مثالهـم عـربيّ اللهجـة عثـماني التبعـة سـوري النشـأة مـن أشـد المحافظـين عـلى نَزعتـه وأَسـدِ المخلصـين الطاعـة لدولتـه رغـماً عـن تطـاول ليـل هجرتـه وترامـي مطـارح النّـوى بـه لأرض غـير تربتـه. حتـى لقـد كان رسـوخ نزعتـه واسـتحكام صبغتـه نموذجـاً اسـتصوبت

عرضـهُ عـلى الشاشـة العربيـة العزيـزة لتتمثّلـه وتحـذو حـذوه وهـو مـن شـأنه أن يدعوهـا ولا شـك إلى الاستمسـاك بالتابعيـة ويبعـث بهـا عـلى

استعظام العثمانية فلا غرو والحالة هذه إذا أدرت على سياحة هذا المقام السري الكلاما. واتخذت ترجمتهُ سلك نظمت فيه دُرر تفاصيلها نظاماً. من لمعاتٍ تاريخيّة ولمحاتٍ جغرافية ومبادئ أدبية شأنها أن تسدد هذه الناشئة العزيزة الجري في غلاء المعالي والمراتب. والتصابي إلى شريف الطالب. وان تنشِّط هممها لأطبع على غرار جوَّالتنا بدفع عزائها الحميَّة إلى زهر المكرمات وعُز المناقب. بعزّة قصعاء ونفسٍ عزيزة شمّاء تأبي الصغار وساداً. ولا ترضى مضاجع الضّعة والهوان مهاداً. لأنه على قدر بعد العزية. واشتداد الشكية. تتحقق الآمال. وتذلُّ أعراف المعالي وأعناق المكارم وفقا لقول من قال:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ

وتأتي على قدر الكرامِ المكارمُ

وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

وبعد أن تمّ لي ايجادُ إنشائها، وفرغت من تصوير ما تمثل لي من الخواطر في قوالب إملائها. سمّيتها «السياحة المنصورية في الأمصار الغربية» وأنا اسأل الله أن يكون وهب فيها من السلامة ما يُكسبها رضا الطالبين. ويفيزها بارتياح المترسّلين الفاضلين. فيسدلون على ما يتراءى لهم فيها من المغامز سجاف العذر القمين.

الفصل الأوّل

في ذكاء منصور ورفعة أهوائهِ وزواجهِ

•••

كان الفتى منصور نَدُساً متوقّد الذهن ذكيّ المشاعر قد لاحت على محيّاهُ منذ نعومة أظفاره مخايلُ الإربة والنجابة وسطعت في سماء بصيرته الأحلام الراجحة والأفهام النَيّرة فكانت نفسه البعيدة الهمّة تسمو به إلى خطير المساعي وتحفزه إلى المدارك النبيلة وبلوغ الأقدار الجليلة في التمدن والحضارة فلم يدّخر في سبيل ذلك تعباً أو نصباً يصادفه في ترويض قواه العقلية باستعادته ونشاط ولم يألُ جهداً في التنقير والتفتيش عمّا يحقق أمنيته ويفيزه ببغيته. فكم من أيام صرفها بالمطالعة كان يحرق فيها ساعات نهاره باثمد اجتهاده وكأيّ من ليالٍ لذَّ له اكتحال السهاد فيها وقد أحياها بمسامرة كتبه وهي خير جليس له استيضاحاً لحقيقة طالما تلجلجت في صدر نفسه الأبية وهي الوقوف على أسرار نجاح النوع الانساني حتى إذا ظهر له أن المركبات منه تمتاز عن بعضها بالعوارض المشخّصة حسب النظام الطبيعي وتفرد عن سواها قدراً ما يكيّفها به النظام الأدبي من عزّة قعساء وهمّة شمّاء ورأيٍ أصيل واقدام جليل وفقاً لقول الشاعر:

لولا المشقَّة ساد الناس كلُّهم

الجودُ يفقرُ والاقدامُ قتّال

وإنما يبلغ الإنسان طاقتهُ

ما كان ماشيةٍ بالرجل شملالُ

لاذ بأهبة الحزم والنشاط لتفحّص حوادث الطبيعة ومراقبة تقلباتها ومراعاة سننها توصّلاً إلى الفاصل الأدبي الذي يطأ به صاحبه أعراف المجد ويبني له خطط المكارم فترتفع منزلته في العيون ويصبح وهو من أعاظم القوم، وإعلامهم وأخلد إلى المناظرة علماً منه أن المرء بها يبلغ أربهُ برسوخ ملكة العلم فيه التي هي من أجل الفواصل الفارقة بين هذا وذاك والرافعة المحلى بها من حضيض الخمول والضعة إلى ذروة الفخار والمعالي مفردة إيّاه عمّن سواه من النوع الانساني خطراً وقدراً ولا كانت آوانئذ قلة الوسائط في بلدته حصرون تمنعه بلوغ رغائبه وتصده عن إدراك مآربه اعتزم على مهاجرة الوطن العزيز ورأى أن في امتطائه متن الاغتراب نجاحاً وخيراً وتقدماً إذ ينفتح أمام قواه العقلية باب المعارف والتجارب مصداقا لما قيل «إن لم تتغربوا لم تتجربوا» بيد أنه رأى أن يستصحب له في مهجره نصيراً يضافره على ركوب الأموال ويكون له عزاءً وسلواناً في مصائر الارتحال فرغب في الاقتران وعُقد له على فتاة ارتدت بالظرف وتسربلت بالملاحة يترقرق ماء الجمال في وجهها ويجول نداء اللطف في غزتها ويسيل الظرف من أعطافها وهي عزيزة النفس فكهة الأخلاق رقيقة الشمائل ولا عجب إذا نبتت في أكرم المنابت وأطيب المناسب وإنها تنتمي إلى تلك العائلة السمعانية العريقة بالشرف والفخار والذائعة الصيت في الأقطار فعزما كلاهما على الارتحال وعقدا برب السماء نواصي الرغائب والآمال.

الفصل الثَّاني
في المهاجرة

•••

مريم: كثيراً ما سمعت القوم أيّها القرين العزيز يتحدثون عن المهاجرة ومفاعيلها وطالما تطيّروا شؤماً من ذكر آفاتها لدى الكلام عنها فهل لك أن نكشف لي عن حقيقة معناها؟

منصور: ذلك أمرٌ بيّن يعلمه كل عربي وإنك لا شكّ تفقهين أن المراد بالمهاجرة الخروج من بلدة إلى

أخرى والارتحال من وطن إلى آخر بمغادرة من فيه من الأقرباء والأنسباء والأحباب والأصحاب.

م م: عندي أن الأولى بهذه اللفظة أن تنسخ من المعاجم ويتمحَّق من العقول مدلولها لأنه كيف يتأتَّى من دبَّت فيه حُميَّا المبادئ الجنسية وسرت في عروقه المحبّة الوطنية وترعرع في الجهاد الأبويّة ناعم البال برؤية اخوانه وبني أبيه أن يبرح وطنهُ ويبدّل جنسيتهُ وينأى عن منظر الأبوين محروماً من الاستمتاع بلذة التلاقي بين خلّانه وأترابه وبني عشيرته. فلعمري إني لم أكن لأفقه ذلك فشواعري القلبيّة وعواطفي اللبنانية وتابعيتي العثمانية تضيق ذرعاً باحتمال هذا العبء الثقيل بل تنوء تحته بجناح مهيض وتأبي كل الإباءة الكلام عن مثل هذه اللفظة الجافية للاستماع والشديدة الوطأة على الطباع.

مص: إنك لم تصيبي أيتها العزيزة عما اتيت بل هي عواطفك الأنثوية وحركات فؤادك الرقيقة قد استولت على عقلك فأنطقتك بما نطقتِ

بـه فأيقنـي يـا رعـاك اللـه أن الأمـر عـلى غـير مـا ذكـرت فـان الإنسـان الناطـق لا يـدرك الحقيقـة إلا أذا تجـرد عـن أمبـال إرادتـه وتغلَّـب عـلى أهـواء طبيعتـه النازعـة بـه إلى الشـوق والحنـين فمثلـه مثـل الرجـل المسـيحي الـذي إذا شـاء أن يتلقّـى وحـي ربّـه ويشـهد تجلّياتـه القدسـية تحتّـم عليـه أن يترفـع عـلى الطبيعـة السـفلية ويتنـزّه عـن الهيـولى الجسـميّة مخافـة أن تتعـشّى المـادة بصيرتُـه فتحـول بينـه وبـين النـور الروحـاني فإنـك لـو تعريّـت والحالـة هـذه عـن تلـك الشـواعر وانتزعـت فـؤادك مـن تلـك العوامـل التـي تتنازعـه بـين رفـع حـركات الشـوق وخفـض همـزات الصبابـة ونصـب أعـلام الوجـد والهـوى لعلـت أن في المهاجـرة الفتـح القريـب لإغـلاق المـدارك وأبـواب الارتـزاق فـان الإنسـان كـما هـو معلـوم عقليـن غريزيـاً ومكتسـباً عقـل يسـتفاد بالمعـاشرة

والمطالعـة والمناظـرة والتجـارب والممارسـة وعقـلٌ غـرزه اللـه بالطبـع في كل إنـسي ليـدرك بـه الحقائـق فـإن هـو اسـتوطأ مهـاد الخمـول أو قعـدت بـه همتـه ولم يتجـوّل مـن مـكان إلى آخـر لملاحقـة أهـل العلـم والأدب لمناظـرة هـذا ومحـاورة ذاك ليـث عـلى فطرتـه الطبيعيـة ولم يتيـسّر لـه أن يـذوق لـذّة أو يتخيّـل إنسـاً في الهيئـة الاجتماعيـة وكان مثلـه مثـل المـاء الراكـد في حـوض أو غديـر فإنـه إذا طـال مكثـه فيـه عـلى سـكونه لا يلبـث أن يفسـد ويأسـن: «فمكـث المـاء يبقـى آسـناً»

أمـا إذا سـميت بـه نفسـه ونشـط مـن عقـال منزلـه الأبـوي لتكميـل عقلـه الغريـزي وتزيينـه بمـا يجـد في إدراكـه مـن العلـوم والمعـارف والصنائـع التـي إذا اسـتمرها عـادت ولا شـك عليـه بالعوائـد الجميلـة والفوائـد الجليلـة

فتستنير بصيرته بما يرى في منازل العمران من الأخلاق السليمة والآداب المحمودة ويهب إدراكه من مضاجع الجهل الوضيعة واثباً إلى قسم المعارف الرفيعة. وهذا لا يتمّ إلا بالمهاجرة لأن المرء إذا ما ترك ربوعه الوالدية وسار يريد الطّواف في أقاليم الكرة الأرضية يرى ويسمع من الأطوار والأخلاق والعوائد والأذواق ما لا يفي بو الوصف ويتخلّق لدى معاشرته ساكنيها على اختلاف أديانهم ومذاهبهم بما فيهم من السجايا الجيدة والمساعي الشريفة والطباع الكريمة حتى إذا ألف ما حسن له منها وتعلم من لغاتهم ما قدر على تحصيله بجد ونشاط أصبح وهو متكمل في حدود الناطقة بالغ من الحضارة شأواً بعيداً إذ بتمثل اللطف في منطقه وفعاله وينطق المجد والكرم من محاسن خلاله.

وان ما ذكرت من أن من غادر وطنه غير جنسيته فليس بحقيقية ولا بد لفهم ذلك من أن تعلمي أن الراحلين عن الأوطان الغرض من الأغراض لا يمكن أن يدعوا مهاجرين بحصر المعنى وأن ليس كل من يتغيّب عن بلاده أما تنزُّها أو تعاطياً لفنون التجارة يسمّى مهاجراً على الحقيقة إلى أن المهاجر الحقيقي في العرف الاصطلاحي هو من ينزح عن الأوطان وفي نفسه ما فيها من هجرها والترك لها بتاتاً إذ تخطى تخومها عازماً على عدم الأوبة إليها أو من إذا غادرها لا يتدبر عواقبه ولا يتبصر مصائره فيرى هل يعود إليها ويشاهد محاسنها إذا هادنته صروف الزمان وعليه فلكي يُحصي المهاجر في عداد المهاجرين الحقيقيين ينبغي له لدى ارتحاله ان يعتزم على الاقامة في أرض غريبة غير أرضه وتربة غير تربته ومن ثم يظهر الفرق بين من يهجرون وطنهم مدة العمر كله على وجه التأبيد وبين المهاجرين إلى حين

على وجه التوقيت ولذلك فلا يمكن إطلاق المهاجرة بحصر معناها الاصطلاحي على من يتغيّب عن بلاده مثلاً في أوائل الخريف انتجاعاً لأسباب الارتزاق كأن يحترف ذاك حرفة يتعيّش منها أو يتعاطى تجارة تسفر له عن وجوه الخير والفلاح وهلمَّ جراً ثم يعود إليها في أوائل الصيف فمثل هذا لا يُدعى على الحقيقة مهاجراً لأنه كلما طالت أيام ابتعاده عن دياره اشتدت رغبته في العود إليها وازداد بتشبّثه بجنسيته لا سيّما إذا ما عارض احكام دولته ووطنه بأحكام تلك الدولة الأجنبية التي وطئ أرضها وحل بربوعها.

فلعمري أنّ يتهيأ للبنانيّ نظيرنا نشأ في حجر ذلك الجبل العزيز ودرج من مهد الأمن والراحة وتعود عن صغر الاخلاص في طاعته لرؤسائه الروحيين والزمنيين وذاق لذة تلك الشرائع السهلة الخفيفة وعرف ما للبنان من المنح الفريدة والامتيازات الجليلة التي خولته إياها دولتنا العليّة بفيض تعطّفها الشاهاني أن يتجنَّس بجنسية غير جنسيته ويدين لدولة عير دولتيه. ولا بد أن تعلمي أيضاً أن حب الأمة والوطن شيئان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن أحب وطنه أحب دولته والعكس بالعكس ومن الثابت البيّن أن من ارتحل عن وطنه لا يزال يحن شوقاً إليه آناء الليل وأطراف النهار فما أحب إليه ربيعة الزاهي وما اشهى إلى باصرتيه منظره الباهي. فصورته في قلبه موضوعة وهيأته في خياله مطبوعة وكلما طالت عنه غربت استحصفت في لبّه أسباب ولائه وصوته وازداد مفاخرة بعثمانيته لأن حبّه لتابعيته متأتٍ من غرائز طبيعية والسرّ فيها مجهول.

م م: لقد راقني بيانات وأقنعني تبياناك ولكن ألا ترى ما في المهاجرة من المضار والأخطار فإن القوم إذا عمدوا للارتحال عن أوطانهم تركوا عيالهم على مقال من جمر البلبال وأولادهم في خصاصة وسوء حال ومنازلهم خالية ما فيها ديّار ولا نافخ نار حتى إذا ما بلغوا تلك الأقطار السحيقة وهم يجهلون لسان أهليها لا تجمعهم وإياهم وحدة الأطوار ولا تؤاخيهم عاطفة رحم تقلّصت وجوه بشرهم وابتسرت جباه السهم «وكيف يؤانسهم من لا يجانسهم». وعاشوا عيشة المسكنة والعوز قاضياً عليهم نكد المطالع بالرقاد على الحضيض والتدثّر بثياب لا توافق المناخ والاغتذاء بمآكل غير صالحة للغذاء وهلمّ جرا من ضروب الأهوال التي لا بد للأجنبي من معاناتها في ديار الغربة.

مص: مهلاً أيتها القرينة فمن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب وتلك القاعدة التي وضعتها ليست بمطردة أو عامة تتناول أفراد المهاجرين فان المهاجر إذا جلا عن وطنه وضم إليه زوجة وولده وكان لديه من المال ما يحظيه بأمنيته ولو تعددت في منازل غربته غير جاهل لغتها فهو وإن قاسي من ألم البعاد أهوالاً وختمت على باصرتيه دياجي الوحشة الحالكة بانتزاحه لأرض هي غير أرض الوطن لا يلبث أن يصيب خيراً. فكم من الذين هاجروا ولم يكونوا على الحالة التي وصفت ولم يبلغوا الشقاء الذي بيّنت وقد توفّقت أشغالهم وراجت أعمالهم ومكاسبهم وأحوالهم وكم من الذين تفرّدوا أدباً وفضلاً وتجارة فصدقوا في معاملاتهم واشتهروا في معاطاتهم وتتميزوا عن مواقف الأشباه بآدابهم وأقلامهم وهم والفخر لوطنهم ممن يتفانون في حب الخير العام وسبيل المصلحة العمومية فكل امرء إذا جد وكد

وتحـرّى وسـعة في إدراك مـا انبسـطت إليـه آمالـه وخشـية اللـه في قلبـي لا يكـذّب أن تنـال حاجتـه ويجنـي ثمـرة مسـعاه إذ يصيـب مـالاً جزيـلاً وعمـراً بأسـباب الهنـاء والرفـاه موصـولاً:

فاتـق الله فتقوى الله ما

جـاورت قلـب امـرءٍ إلا حصـل

م م: حسـبي أيهـا الحبيـب وكفـى بمـا بسـطت مـن الأدلـة الواضحـة برهانـاً يحبـب إليّ المهاجـرة والتنـائي عـن الأوطـان ويشـوقني إلى الانفصـال عـن العيـال وركـوب البحـار فهائنـدي قـد وطنـت النفـس عـلى الارتحـال فـأسرع في ارصـاد معـدّات السـفر.

الفصل الثَّالث

في الوداع

•••

إن السيدة مريم مع أنها قد ربطت للاغتراب جأشا ثابتاً وأبدت من التجلّد على مضض البعاد ما لا يملك سواها من نفسه فمع ذلك ما كاد الترحُّل يأزف حتى تداعت حصون اصطبارها واستلم للوجد فؤادها فتغلّب عليها الحنين والشوق واستكانت عيناها العبرات فأخذت تحيي وطنها تحية الوداع وتملي ما في مخبّات صدرها على لسان اليراع: «يا أرض آبائي بعدت عنك النوازل وفاضت عيونك والمناهل. لأنك منزع نفسي ولو مهما حللت من المنازل. فما أحب إلي تربتك المسكيّة وما أشهى روائح أزهارك العطرية وما أجمل إلى العين حلل رباضك.

السندسية. فيا أرض آبائي إليك ابدا منزع فكري. وبك يهدس وأن نأيت قلبي وذكري. أودّعك وفي القلب نار ملتهبة وبالعين دمعة منسكبة أفأذرف دمعة الفرح والسرور يوم الرجوع. أم يقضي عليّ أن أموت غريبة عنك بعيدة عن الأطلال والربوع ؟ فهائندي أودّع بوداعك العافية وأفارق بفراقك المعيشة الراضية إذ قد ملكتني للبعاد عنك حرقة تغلغلت بين اللهاة والتراقي وخنقتني لحرماني مشاهدتك عبرة تحذرت بين الجفون والمآقي. فوجدي بك يتكرر على كتر الجديدين

ويستغرق ساعات الملوين فلا بدع إذا أنشدت والحالة مع أحد شعرائك:

يا أرض أنت عزيزة عندي ونظر

تلك الأنيسة لا يقابلها ثمن

سأحن شوقاً ما حييت وإن أمت

فجميل ذكرك يختبئ طيّ الكفن

إلى أن اقبلت تودّع أهلها وذويها وهي تسأل الله أن يعينها وقرينها على تعجيل الأوبة وتخفيف أيام الغيبة ثم أخذ منصور يتزوّد قبيل الفراق من مشاهدة بلاده الجميلة ومناظرها البديعة وهواها السلسبيل وقلات أحباب قلبه وأقاربه وخلانه فقال والزفرات تتصعّد من أعماق صدره: إلى الملتقى أيّها الأحباب إلى المشاهدة يا جميع من لهم في الفؤاد منازل من الحب الخالص والوداد الصادق. الوداع الوداع أيتها المنازل الوالدية والمرابع الوطنية: ثم انثنى بجسم ناحل. وصار من صبره على مراحل. فأجهش بالبكاء وصاح والعبرات تقاطعه لدى معانقته والدته: إني سأتحمل يا أمّاه مع يسير الفرقة عظيم الحرقة ومع قليل البعد كثير الوجد فلا أعوّل إلا على العويل لوكان يغني ولا استنصر غير الحب لو كان يجدي فما كاد يأتي على كلامه حتى حان آن الرحيل فالبحر هو وحليلته من بيروت في الباخرة الافرنسية سنة ١٨٨٣ وكان منصور وقتئذ في الخامسة والعشرين من عمره ومريم تناهز العشرين فركبا البحار

وغابا عـن تلـك المشـاهد وفصـلا عـن أقاربهـما وأحبابهـما ونزهـة خواطرهـا حاملـين عـبء ذاك الفـراق المؤثـر بجـزعٍ وهلـع:

يا راحلين ونجم السّـعد متّبعٌ

خطاهـما كفكفـا باللـه دمعكـما

سـيرا على الطائر المليون في جذلِ

فالله يحرس في التّسـيار جمعكما

الفصل الرَّابع
في سفرهما إلى يافا

•••

سافر المنصوران نواهما الله ميمّمين مدينة يافا فوصلاها في صبيحة اليوم التالي وقد رست بها الباخرة على نحو ميل من مينائها لكثرة ارتجاج بحرها واشتداد الارياح فيها فصرفا سحابة نهارهما يسرّحان الأبصار في جمال موقعها الطبيعي وانتساق انيتها ارتفاعاً تدريجياً يروق الرائي عن بعدٍ فتعلو البلدة في عينيه حتى يخالها أنها أكمة واحدة. يافا واقعة على شاطئ بحر الروم وهي على مرحلة من اورشليم تمرّ عليها أ كثر البواخر التجارية لنقل البضائع منها وإليها فلدى انتصاف النهار خرج منصور بقرينته وركبا كلاهما عجلة أقلتهما إلى بساتين المدينة المعروفة «بالبيارات» تنزهاً وانشراحاً فشاق مريم بديع منظرها وانتظام أشجارها وتحدّر مياه النواعير فيها فحانت منها التفاتةٌ إلى منصور تشير إلى أنها ترغب باستطلاع رأيه في شأن تاريخها فقالت له هل لك أيّها العزيز أن تطرفني بملحةٍ من أخبار يافا القديمة العهد - حبّاً وكرامة سيدتي. ثمّ شرع يسرد لها حوادثها العريقة بالقدم قال له درّه:

إن تاريخها لقديم جداً لأنها من أقدم مدن العالم نشأة ولقد تتابعت عليها حوادث الزمان وتعرضت لسهام تقلبات الأيام فكر من فاتح أخذها مغنماً بارداً وظافرٍ أعمل فيها السيف والنار ورافع الراية الصليب عززها وأقام فيها حامية ملاذاً للحجاج فتقلّبت ولايتها قبل

المسيح بين كثيرين كابلونيوس والي البقاع وسورية وبين يهوذا المكابي وأخيه سمعان وهيرودوس الكبير وتولاها بعد المسيح اركيلاوس ابن المذكور وأعقابه إلى أن افتتحها الأمويون سنة ٦٣٦م. ثم العباسيون ثم الزنكيون وفي سنة ١٠٩٩ احتل قلعتها الصليبيون واستحوذوا عليها يتعاقبون فيها حكماً إلى أن استولى عليها صلاح الدين الأيوبي بعد موقعة حطين الشهيرة سنة ١١٨٩ فاسترجعها سنة ١٢٥١ الملك لويس القديس وأحاط بها سوراً مؤلفاً من أربعة وعشرين برجاً إلا أنه قضي على المدينة بالدثور لأن بيبرس ملك مصر زحف إليها سنة ١٢٦٧ فدكّها وقلاعها وبروجها وتركها خربة ثم عمرت وأُهلت فاستولى عليها العثمانيون في نحو سنة ١٥١٧ بأيام السلطان سليم الأول بعد استظهاره على الغوري صاحب مصر في موقعة مرج دابق بين حلب وكلس ثمّ صارت إلى أيدي نابوليون الأول فاحتلها وتملكها حيناً لأنه ما كاد يأتيها إبراهيم باشا المصري في نحو سنة ١٨٣٤ حتى تغلب عليها فأبى الله إلا أن يردها إلى نصابها وهي اليوم تحت ظل الدولة العلية الوارف أيّد الله سرير سلطتها بالنصر والأمان ما تعاقب الملوان.

بعد ما فرغ منصور من كلامه وفرغت مريم من مناظرته وتدبّر مقاله بإمعانٍ ونظر قفلا من تلك الحدائق النضرة إلى تفقّد آثار المدينة فوجدا أن أبنيتها قديمة متينة معقودة في الغالب بالحجارة حتى والدور العالية يصعد إلى غرفها في سلالم حجرية لارتفاع مركزها الطبيعي تتابعاً وتبين لهما أن أسواقها في غاية القدم وهي معوجّة ضيقة متكاثفة البناء ذات ساباطاتٍ وغير مستوٍ أرضها يزدحم الناس بها مروراً لكثرة دخول الإبل إليها مثقلة لا سيما أيام المواسم. بيد

أنـه قـد بُنـي حديثـاً لشرقيهـا سـوق متسـعة الممـر محكمـة الصنـع ممتـدٌّ فيهـا طريـق للعربـات يقطـع البلـدة خارجـاً مـن الجنـوب إلى الشـمال. وأشـهر أبنيتهـا ديـر الآبـاء الفرنسيسـيين البعيـد الصيـت المسـتفيض الشـهرة وهـو واسـع الأرجـاء جميـل الموقـع عـلى مقربـة مـن شـاطئ البحـر يشـتمل عـلى غـرف للرهبـان ونـزل للـزوار متوفـرة فيـه معـدّات الضيافـة الكاملـة بجميـع أدواتهـا فيلقـى نازلـوه أسـباب الراحـة أكلاً ونومـاً دون أن يكلّفـوا دفـع شيء وفيهـا عـدة مـدارس وأديـرة ومستشـفيات وأنـزال (لوكنـدات) فـزارا مزاريهـا وهيـا كنيسـة الآبـاء المذكوريـن المشـيدة عـلى اسـم القديـس بطـرس وبيـت سـمعان الدّبـاغ الـذي فيـه أقـام زعيـم الرسـل التلميـذة طابيتـا مـن المـوت (أع: ٩:)

الفصل الخامس

في سفرها إلى مدينة السلام القدس

•••

بعد أن أقاما في يافا يوماً ما قاصدين مدينة القدس الرفيعة الشأن والجليلة القدر فاستأجرا عربة تنقلها إليها وأخذا في المسير بين هاتيك الحدائق النضيرة والرياض الغضيرة التي لا يقع عليها طرف امرء حتى يؤاذن بالانشراح ويتفاءل بالانفساح لحسن مشاهدها الآنسيّة وضوع روائحها العطرية إلى أن بلغا أرضاً أريضة منفرجة جداً رقيقة الحواشي متأنقة الواشي تُعرف بسهل «سارون» وهو المعروف في الكتاب العزيز «بشارون» والموصوف فيه بقوله «قد أوتيت مجد لبنان وبهاء الكرمل والشارون» (اشعيا ٣٥: ٢) وقد اشتهر بما أتاه شمشون عليه من إرساله في الثلاثمئة الثعلب مجعولة ذنباً إلى ذنب ووضعه بين كل ذنبين منها مشعلاً موقداً لإحراق أكداس الفلسطينيين وزروعهم وهو متسع جداً ومنفرج لجهاته الأربع يبلغ عرضه نحو ٨ ساعات ولا يقل طوله امتداداً عن الثلاثين ساعة تقريباً. فطفقت نواظرها تتقصى في محاسن تلك السهول المجتمعة فيها أزرار الأزهار والملتمعة في بقاعها أنوار الأنوار والشمس ناشرة فوقها حبال أشعتها الذهبية حتى خيل لهما أنهما يسيران في ليلة مقمرة لا في نهار لأن نورها قد كان يذلّه نضر الاخضرار. ثم تابعا سيرها فيه وها يمرّان على قرى صغيرة كان لها في التاريخ شأن عظيم إلى أن انتهيا إلى الرملة فأخذا فيها نصيباً من الراحة

وعلقت مريم حينئذ تستوضح تاريخها حسب مألوفها منصورها الذي لما كان مضنكاً من التعب مأخوذاً من الاعياء اكتفى عن التصريح بالتلميح فقال: إن هذه المدينة أخذت مكانة أيام سلمان بن عبد الملك الذي حصّنها وأخرب مدينة اللد فتعاقب في ولايتها الحلفاء إلى سنة ١٠٩٩ أيام فتحها الصليبيون وفي سنة ١١١٥ دلقت إليها جيوش المسلمين فاستحوذوا عليها مستظهرين ولم يلبث الصليبيون أن فتحوها مرة ثانية فرمموا قلاعها وحصّنوا أبراجها وكانت محاطة بسور منيع فأتاها الملك صلاح الدين الايوبي بجيوشه سنة ١١٨٩ بعد وقعة حطين فدّك القلاع والأبراج والسور دون أن يرعى على شيء من آثارها بحيث أمست أثراً بعد عين. وفي سنة ١١٩٢ سافر الملك ريكارد الملقّب بقلب الأسد إلى انكلترا بعد أن أبرم عهود المصالحة بينه وبين صلاح الدين على أن تُنصف بينها الرملة واللد وتولّى كل منهما نصفه وفي سنة ١٢٦٦ فتح الرملة بيبرس البندقداري ملك مصر ظافراً فأخذ الولاة من بعده يتناوبون على إدارة ولايتها إلى أن طلع عليها هلال دولتنا العليّة أدام الله عزّها فتملكتها وخفق فوقها علمها والمظفر. أما حالتها الحاضرة فهي كما ترين وليس فيها ما

يستحق الذكر من أبنيتها سوى دير الآباء الفرنسيسيين والجامع الكبير الذي كان كنيسة لإكرام القديس يوحنّا شيدها الصليبيون على اسمه فاحفظي كل ذلك وادّخريه في حقيبة جنانك.

فـما كاد منصـور يفـرغ مـن مقالـه حتـى تـوادت الشـمس في الحجـاب فخرجـا منهـا أي الرملـة واسـتأنفا سـيرها فأسرعـت بهـا العملـة وكان الظـلام مخيـماً والسـكون سـائداً فاسـتهواهما النعـاس لكنهـما لم يكتحـلا حثاثـاً ولا غماضـاً لشـدة عـدوِ الخيـل وجعجعـة الدواليـب ومـا كادا يصبحـان حتـى اسـتقبلا القـدس منتهـى الآمـال ومشـدّ الرحـال.

الفصل السَّادس

في المدينة المقدسة

•••

فهـا هي ذي مُنى الأرواح حقّاً

ومغناطيـس أفئـدة الخلائـق

فكـم من أرجلٍ وطئت ثراها

وكم من مغرم فيها وشـائق

ببيـت الله قد دُعيت يقيناً

وقـد جُليـت بهـا كلّ الحقائـق

بهـا نُصبت عروش الحكم تترى

وأمّتها المغارب والمشـارق

كفاهـا الفخـر أن قد حلّ فيها غله

قد تجسّـد وهو خالق

القـدس ومـا أدراك مـا القـدس مدينـة اللـه وبيـت قدسـه القديـم موطـن الأنبيـاء ومنبـع الديـن القويـم مَفـدى الجنـس البـشري ومدفـن فادينـا الكريـم قدّرهـا الملـوك حـق قدرهـا وعرفـوا رفعـة شـأنها وعظيـم أمرهـا فعزّزهـا الاسرائيليـون وأحكمـوا بنـاء حصونهـا وعُنـي الملـوك مـن بعدهـم بإصـلاح شـؤونها فتعاقبـت فيهـا أحـكام الـدول تـترى ولم يضـنّ أحدهـم بهـا عـزّاً وقـدراً حتـى غـدت مطيـاً للأبصـار ومتنازعـاً عـلى ممـر الاعصـار

فتناوبتهـا بحـور الحـروب وانتابتهـا ضروب الخطـوب واغتالتهـا ركـوب الكـروب.

فكـم من مرّةٍ دكّت فرُمّت

وفاجأهـا الـرّدى في كل عـصرِ

فلـو جئنا نعدّدُ ما دّهاها

لما وقـع المعـدّد تحـت حصر

فبعـد أن كانـت مريـم تـسرع إليهـا الخطـى وتجـدّ في المسـعى بفـؤاد يخفـق فرحـاً ووجـه ينطلـق بـشراً وأيـدي تصفـق طربـاً تبدّلـت لـدى الوصـول إليهـا حالهـا وأمـسى الهـمُّ يناجيهـا والقلـق يميـدُ بهـا فسـألت منصـور دهشـةً وقالـت لـه متحـيّرة حيّـاك اللـه أيهـا الخـلّ الـوفي وبيّـاك مـن أيـن لي هـذا الانقـلاب الوشـيك والتغـيّر السريـع فـإني مـا كـدت أطـأ إصـاد بـاب سـورها حتـى انقبـض فجـأة صـدري انكماشـاً واكتـأب فـؤادي يضطـرب ارتعاشـاً فهـل لـك أن تميـط اللثـام عـن محيَّـا هـذا الـسر الغريـب؟

مـص: لا غـروَ إذا اسـتولى عليـك ما اسـتولى مـن الاضطـراب والاغتـمام وارتبك بالـك وهـاج بلبالـك وقـد شـاهدت الآن مـا لالقـدس المدينـة العظيمـة مـن المشـاهد التـي تأخـذ بمجامـع الفـؤاد تأثـيراً وتفطـر مـرارة الكبـد خشـوعاً وتسـمح بـإذن المفاجـأة مرثاهـا فجيعـاً. لأنـك لـو علمـت مـا كانـت عليـه بهيـة الأرض مـن العـز والـدلال ومـا صـارت إليـه مـن الـذل وسـوء المـآل لمـا أكـبرت مـا أشـعر قلبـك مـن الهـم والاضطـراب ولمـا كانـت لعبـت بـك أكـف

الوسـاوس وتداولتـك أيـدي الهواجـس. ألا فانظـري إلى القـدس أني تغـير نضارهـا وكيـف انهالـت في رأس كل شـارع حجارهـا دمّـرت حصونهـا القويـة ودُرسـت معالمهـا البهيـة وامّحـت قصورهـا العليّـة غاصـت في الأرض أبوابهـا وحُطّمـت مزاليجهـا وعـمّ خرابهـا كانـت عروسـاً غانيـة حسـناء فأمسـت كأرملـة معـوزة لا فخـر لهـا ولا سـناء. غشّـاها الـربّ بغضبـه وبالظـلام وانجـز سـخطه إذ صـبّ جامـات حنقـه عليهـا للانتقـام أضرم فيهـا نـاراً فأكلـت أمهـا وأعنتهـا إلـه إسرائيـل لكـثرة معـاصي أهلهـا وخطايـا رؤسـائها الذيـن سـفكوا في وسـطها دمـا زكيـاً. فتاهـوا كالعميـان في الشـوارع لأنهـم تلطّخـوا بـدم الصديـق وأتـوا أمـراً فريـاً. فلعمـري مـن يفكـر في مثـل هـذه الأحـداث ولا يتـولاه الغـم والحـزن فـإذا شـئت والحالـة مـا ذُكـر تخميـد تنفّـس الصعـداء واطـلاق النفـس مـن عقـال البُرجـاء، فهلمّـي بنـا إلى قـبر المخلـص منتهـى الآمـال فأننـا كلينـا نشـعر ولا ريـب بتعزيـة روحيـة ولـذّة وفيـة.

الفصل السَّابع
في كنيسة القيامة

•••

مـا كاد منصـور ينتهـي مـن كلامـه حتـى ظمئـت روحـه إلى لقـاء مدفـن فاديـه فاسـتخفّه وقرينتـه إليـه شـوق غريـب استطارهما إلى كنيسـة القيامـة الخطـيرة الشـأن الواقعـة في المحلـة المعروفـة بحـارة النصـارى فلـم يشـعرا إلا وهـا في سـاحة القيامـة البرّانيـة فدخلاهـا مـن رتاجهـا بأعـين شـاخصة إلى تلـك المآثـر الجليلـة ووجـوه تتدفـق بـشراً وبهمـة وقلـوب طافحـة سـلواناً وعـزاء حتـى إذا انتهيـا إلى محنـط السـيد المسـيح المعـروف بالمغتسـل سـجدا جاثيـين أمامـه ولثـما وجهـه باخبـاتٍ وورع ثـم خفًّـا إلى القـبر المقـدس مجـلى الرغائـب وهنـاك حـدث ولا حـرج عـما أبديـا مـن مظاهـر الخشـوع والتقـى فكـم مـن عـبرات تحـدرت عـلى تلـك الخـدود الورديـة وكأيٍ مـن آيـات دعـاء سـبحا بهـا للـه بثغـورٍ دريّـة نقيـة وكـم مـن عواطـف طاهـرة تصاعـدت مـن هاتيـك القلـوب اللبنانيـة الوضيـة فالإيمـان منهـا ثابـت وطيـد وشـواهد التديّـن والتقـوى لـه مصـداق أكيـد. فبعـد أن سـجا عـن تسـبيحهما وقـد شـفيا أوام عبادتهـما وضعـا غليـل افئدتهـما صعـدا إلى الجلجلـة حيـث اسـتحمّا أيضـاً بصـلاة اللـه وقتـاً طويـلاً فحانـت مـن منصـور إلى المصلـوب التفاتـة أثّـرت في فـؤاده فأخـذ يخاطبـه بلسـان إيمانـه الحـيّ: بـك يـا مـن صُلبـت لأجلنـا وأقلـت عثرتنـا وافتديـت جبلتنـا وأنعشـتنا مـن صرعتنـا أسـتعين عـلى اتمـام سـياحتنا بنعمتـك ورضـاك وإيـاك أسـأل أن تهـد لنـا قـدم النجـاح والتوفيـق فنسـير ورايـة صليبـك قائدنـا

وذكـرى آلامـك ذخرتـا وملاذنـا فنحيـى بنعمتـك ونقـضي أجلنـا فائزيـن برحمتـك ورضـاك يـا أرحـم الراحمـين:

فطفقـت مريـم بعدئـذ تحـدث منصورهـا عـن القـبر المقـدس وأصالـة تاريخـه فقالـت إني لأعجـب أيهـا الخليـل كيـف أن هـذا الأثـر الجليـل قـوي عـلى أن يخـترق معمعـة الأجيـال دون انثـلام والنـاس رغـما عـمّا قُرعـت بـه سـاحته مـن الحـوادث التاريخيـة أفلعلّـك لم تقـف عـلى مـا سـطّره التاريـخ عـن تيطـس مـن أنـه لمـا حـاصر سـنة ٧٠م المدينـة المقدسـة دك جميـع منازلهـا وابنيتهـا فلـم يسـتبق أثـراً ولم يـدع بهـا مـزاراً إلا ضعضـع أركانـه ونقـض أمـه وبـدد شـمل أهلهـا ايـدي سـبا فكيـف أهتـدي والحالـة هـذه إلى موقعـه الحقيقـي؟

مـص: أظـن إنـك تعلمـين أيضـاً أن النصـارى بعـد خـراب مدينـة القـدس وتضعضـع أركان اليهـود قفلـوا إليهـا راجعـين مـن مدينـة بلّـة (في عـبر الأردن) مـع أسـقفهم القديـس سـمعان المدعـو أخـا الـربّ ولمّـا اسـتقام لهـم الأمـر وحسـنت حالهـم جعلـوا يبنـون لهـم بعـض بيـوت عـلى مقربـةٍ مـن جبـل الجلجلـة والقـبر المقـدس الـذي لم يكـن ليخفـى عليهـم مكانـه وهـو معلـوم لديهـم أنـه في ظاهـر البليـدة (حينئـذ).

فضـلاً عـن قـرب عهـد جلائهـم عنـه فأقامـوا ثمّـت يثابـرون عـلى زيـارة ضريـح المختـص محـط أمانيهـم ثـم شـيدوا لهـم هنالـك أي في جبـل صهيـون كنيسـة (وهـي كنيسـة العليّـة الصهيونيـة) عـلى قـدر مـا اسـتطاعوا إلى احكامهـا سـبيلاً ووكلـوا أمـر إدارتهـا ووِقّيفاهـا إلى عهـدة أسـقفهم المفضـال الـذي عمّـر مئـة وعشريـن سـنة سـاس فيهـا كنيسـة اورشـليم أربعـين سـنة

وقضى في أيام ترايانُس سنة ١٠٧م. وتحققي أن العناية الصمدانية أسراراً ومقاصد تتقاصر عن إدراكها الأفهام البشرية فلا أخالك تجهلين كيف أن الله سمح بعدئذ لأدريانس الملك الذي أنزل بالمسيحيين أهوالاً من ضروب العذاب والنكال أن يقيم على الجلجلة هيكلا للمشتري وتمثالاً للزهرة وما ذلك إلا حفظاً لهذا المزار الجليل وتخليداً لذكره على توالي الأيام لتظل معرفة موقعه مشهورة معلومة لدى الجميع وعليه فقد تمكنت القديسة هيلانة سنة ٣٢٧ من الاهتداء إلى أينيَّتهِ فنزعت الرجاسة منه ونقضت النجاسة الوثنية عنه وعثرت على الخشبة الحقيقة التي علّق المخلص عليها وقد استوضحت صحتها بآيات لا محلّ هنا لذكرها وللحال شرعت في إنشاء كنيسة ملكية فاقت بجمالها واتقانها وزخرفتها كل ما بُني من الكنائس في المعمورة وقد عهد ابنها الملاك قسطنطين بالنظارة على العمل إلى دِرْشِليانس وبإدارة الفعلة إلى كاهن من القسطنطينية فُبدئ في البناء سنة ٣٢٧ وفُرغ منه سنة ٣٣٥.

فهتفت مريم يا لأحكام الله العجيبة وأسراره الغريبة أني تدير سياسة الكون بيد خفية قوية وتستخدم معلولات المبروآت ذرائع لتنفيذ مقاصدها الربانية ولكني لم أكن أيها العزيز لأفقه من الذي أصلح شأنها وأحكم رأيها بعد أن محقتها يد الحدثان فإن كسرى الثاني كما لا يخفى عليك لمّا حمل على المدينة المقدسة سنة ٦١٤ انتهب كل ثمين فيها كخشبة الصّليب وأدوات الآلام وأضرم ناراً حراقاً كانت لها القدس بما فيها من المنازل والمعابد والمزارات أكلةً ومطعماً بأمر الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء العبّاسيين في مصر قد دمّر كنيسة القيامة الشريفة

فكيف عادت إلى حالها الأولى وهي لا تزال إلى اليوم قائمة مشمخرّة البناء تميسُ دلالاً وتيهاً بمحاسن مزاراتها الالهية التي يحبّها النصارى من كل أصقاع العالم.

مص: إن العناية الإلهية قد حرّكت القديس مدستس على أثر تدوين ملك الفرس للمدينة المقدسة إلى أن جدد كنائس القيامة فابتنى أربع كنائس صغيرة يجمع بينها سور وتتخللها عرصةٌ فسيحة مصفحة بالرخام: وهي كنيسة القيامة التي تفرّدت باحتوائها على مدفن السيد المسيح وكنيسة الجلجلة في محل رفع الصليب وكنيسة خشبة الصليب الحقيقية أي حيث وجدت تلك الذخيرة الكريمة وكنيسة العذراء المجهول موقعها الحصري أجل أن مدستس لم يتهيأ له أن يردها إلى رونقها الأصلي وعظمتها السالفة لتعسّر الأحوال عليه بيد أنه توصّل إلى تجديد بنائها وجعلها معروفة مشهورة لدى الزوار. أما عمر بن الخطاب فهو وإن استولى على المدينة فلم يسمح الله أن يجيل في كنائس القيامة يد التدمير بل أبقى كل مزاراتها سالمة وحافظ على سكان إيليا النصارى محافظة يذكرها له التاريخ بإجمال الفضل والمنّة ويجاهر بها النصارى بالحمد والثناء لكن بعد أن دمّرها الحاكم بأمر الله ارسلت العناية الملك قسطنطين التاسع الملقّب بمونوماك فرمّمها سنة ١٠٤٨ وأعاد بناءها إلى ما كانت عليه أيام مدستس بطريركها أي مؤلفة من قبة مستديرة مخيّمة على القبر المقدّس ومن ثلاثة معابد صغيرة في جوانبه ولمّا دخل الصليبيون القدس يوم الجمعة الساعة الثالثة بعد الظهر في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ جددوا بناء الكنائس المذكورة وضمّوا ثلاثاً منها (خلا كنيسة العذراء) إلى كنيسة واحدة

وجعلوا مدخلها من جهة الجنوب ومهّدوا ساحتها الخارجية ولا استقلّ المسلمون بالمدينة المقدسة سنة ١١٨٧ أو ٨٩ أنعم صلاح الدين على النصارى بإقامة الصلاة في تلك الكناس المشار إليها دون ان يحرمهم من الحج إليها والتبرك بمزاراتها وهم لا يبرحون حتى يومنا هذا مستمتعين بهذا الانعام الشاهاني العالي وغائِصين في بحار الأمن والراحة والسلام في ظل مليكنا الأعظم وولي نعمتنا بلا امتنان خلّد الله أيام ملكه بالنصر والفخار ما كرّت الأعوام والاعصار. فهناك كيف تسنّى لها أن تظل على ممر الأحقاب معلومة مشهورة دون أن تُخني عليها صروف الدهر وحوادث الأيام.

م م: نعمّاً أجبت ولكن اسمح لي أن أطارحك سؤالاً آخر في شأنها فيدرأ عني كل إشكال ويجلو كل لبسٍ واختلاط فمن تراه تولّى إدارة هذه المعابد وذب عن حياض محاسنها وهو لا يزال متسلِّماً شؤونها إلى يومنا هذا.

مص: إن البابا غريغريوس التاسع قد سلم إلى الآباء الفرنسيسيين حراسة القبر المقدس وسار المزارات والدينية في الأنحاء الفلسطينية وأثبت لهم حق التولّي عليها سنة ١٢٣٠ فقيت تحت إدارتهم منذ ذلك العهد إلى الآن وهم يبذلون في سبيل المحافظة عليها النفس والنفيس وكان من يعنى من قبلهم بحراستها أساقفتها وبطاركتها كما علمت مما ذكرت لك إلى الآن.

م م: إنهم ولا شك لأهلٌ لكل مدح وثناء وقد ناضلوا عن تلك المزارات إبّان زمجرة الاضطهادات البربرية والمضايق الشديدة التي قضت عليهم

تـارة بالنفـي وطـورًا بالإعـدام وآونـة بالسـجن والعـذاب فللـه درهـم مـن أنـاس باعـوا دنياهـم لدينهـم ووقفـوا حياتهـم عـلى السـعي والجهـاد عمـلاً بمـا جـاء في الكتـاب العزيـز مـن أنـه «بمضايـق كثـيرة ينبغـي لنـا أن ندخـل ملكـوت اللـه» (اعـمال ١٤: ٢١). أمـا الآن وقـد طابـت نفـسي بمـا وقفـت عـلى تاريخـه مـن مهـمات الأمـور فهيـا بنـا نـروّح جسـومنا مـما أجهدهـا مـن الاعيـاء بذكـر مـا أخذتـه عيوننـا في هـذه الـزورة الميمونـة.

وعشـقته فيهـا قلوبنـا ثـم نعـود إلى اسـتئناف زياراتنـا اليـوم المقبـل إن شـاء الله.

الفصل الثَّامن

في زيارة سائر المزارات القدسية

•••

قضى المنصوران في المدينة المقدّسة شهراً لتفقد الآثار القديمة والمعابد الدينية فزارا جبل صهيون ومزاراته من مثل العليّة المقدّسة وحبس المسيح ومن قمّته أشرفا على سلوان القديمة فدار في خلدهما ما تمّ فيها من الخوارق كإبراء المسيح للضرير الأعمى ثمّ انثنيا على أعقابها يتعهّدان برج داود وقصر هيرودس الكبير وكنيسة مار يعقوب الصغير ثم شخصا إلى وادي يوشافاط فزارا فيه بستان الجسمانية وضريح سيدتنا مريم العذراء عليها السلام ورقيا من ثم في جبل الزيتون المعروف بالطور حيث زارا مصعد السيد المسيح فأكثرا من لثم أثر القدم الالهية تبرّكاً وتيمّناً وخرجا من هنالك إلى المحلّة المعروفة بالمسكوبية حيث تجلّى لهما مشهد جليل رسمت لهما الطبيعة فيه صور المحسوسات فقامت في اسمتها الغربي المدينة المقدسة تتلألأ بياضاً بقببها الناطعة وامتدت أمامها شرقاً سهول أريحا الهجيلة ونهر الأردن الهدّار بمياهه الطاغية ينتظم بحافّتيه بسيط أخضر مدّ البصر يشير إلى انسياب مياهه في تلك الأرض السباسب واختراقها لهاتيك البسائط وهناك البحر الميت تتلاعب أمامها أمواجه وتنعكس عليها أشعة الشمس الساطعة فتصيب الناظر إليها بالسّدارة والجهر ومن هناك أيضاً عاينا سلسلة جبال مواب المنبسطة الطويلة تتصل بها قمم الجبال المجاورة المدعوة

في الكتـاب جبـال اليعاريـم وطـور نابـو الـذي مـن عليـه أوحـى اللـه إلى مـوسى كليمـه بدنـو أجلـه. فصرخـت مريـم وقـد راعهـا ذلـك المشـهد عجبـاً وملـك حواسّـها طربـاً: يـا اللـه مـا أجمـل مـا كونتـه يـده القديـرة فـإن نواظـري لم تقـع قـطّ عـلى مشـهد نظـيره يأخـذ بجامـع الفـؤاد ويُخطـر عـلى قلـب الناظـر إليـه روايـة الكتـاب العزيـز ولـولا ظـلام الليـل يحجـب باصرتيهـا لباتـت شـاخصة تتأمـل محاسـن تلـك المشـاهد البديعـة ولذلـك فقـد عـادت ومنصورهـا إلى المدينـة يسـبحان اللـه ويرتـلان آيـات شـكره.

الفصل التَّاسع
في زيارتها بيت لحم

•••

في صبيحة اليوم التالي امتطى كل من المنصورين جواداً وسارا يريدان بيت لحم يهوذا التي كانت تدعى قديماً افراتة (تكوين ٣٥: ١٦ و٤٨: ٧) وكلا الاسمين لمسمّى واحد كما يُستفاد من التوراة وإنما افراتة اسم كان يعرف به أحد بُناتها فلما وصلاها ألقياها على رابية تحدق بها الأودية المخصبة فيها أشجار وكروم وهي تمتدّ من الشرق إلى الغرب وفي شرقيها بيت ساحور وطن الرعاة وفي غربيها بيت جالا التي شُيّدت فيها دارٌ للبطريركية اللاتينية الالقدسية بعد استتبابها سنة ١٨٤٧ ولمّا سارا في أسواقها علما أن أكثر تجارتها في الأدوات الكنسيّة كالسبحات والصلبان والايقونات الصدفية التي يستجيد صنعها أهلوها وهم صاع ماهرون بارعون كلّ البراعة وجميعهم شِغلون مجدون دائبون في عملهم لا يثنيهم لهو ولا تلذ لهم بطالة فاعجب المنصوران بتلك الفنون المحكمة الصناعة ثم إن مريم قبل وصولها إلى المهد المقدّس طلبت إلى منصور أن يذكر لها لمحة تاريخية عن المدية ومزارها الجليل فأجابها إلى ذلك بطيبة خاطر وأخذ يحدثها بقوله:

مص: إن بيت لحم لم يذكرها الأصل العبراني والترجمة السبعينية بين المدن الخاصة بسبط يهوذا التي عدّدها يشوع بن نون في الفصل العشرين من سفره وهي مع ذلك من المدن التي أصابته بالقرعة بدلالة أن سفر القضاة ١٧: ٧ وملوك الأول ١٧ خصصاها بنسبتها إلى

يهوذا حيث ورد فيها «بيت لحم يهوذا» ومما يحملني على الظن من جهة أخرى أنها كانت مدينة لاويّة هو أنها كانت مسقط لرأس بوناتان بن جرشوم وكلٌّ يعلم أن جرشوم هذا صار كاهناً لاصنام ميخا ثمّ سادناً لآلهة سبط الدانيين الكاذبة (قضاة ١٧ و١٨) وقد درج في مهدها رجال عظام ردّد التاريخ ذكرهم كابصان الذي تولّى قضاء اسرائيل سبع سنين (قضاة ١٢: ٨) وابيمالك وزوجته نُعمى اللذين اتخذ ولدهما محلون امرأة له راعوت الموابسة (راعوت ١) وتزوّجها بعد وفاته بوعز الذي من اعقابه ولد داود الملك ففي بيت لحم هذه مسح صموئيل بأمر الرب ملكاً على اسرائيل داود بن يسّى بن بوعز وقد حصّنها وعزز أسوارها في نحو سنة ١٠٥٥ ق. م. رحبعام بن سلمان وهذا مما يسوغ لنا القول إنها كانت ذات أسوار وحصون لأنه قد ورد في الكتاب ذكرٌ لأبواب المدينة منذ أيام داود بل من عهد بوعز. وإن كمهام بن برزلّاي العادي الذي أحضره معه إلى القدس داود الملك بعد انهزام ابنه ابيشالوم أقطعه هذا الملك العظيم قسماً من أراضي بيت لحم وسلَّطهُ عليها ليحرثها ويرعى فيها مواشيه وقطعانه فعمر فيها كمهام بجانب المدينة منزلة (خان) تعرف باسمه كانت محطة للقوافل الهابطة إلى مصر وقد لبث فيها الاسرائيليون بعد قتل جدَليَا وانطلقوا منها لمصر فراراً من وجه الكلدانيين (ارميا ٤١: ١٧) ولعل يوسف ومريم في هذه المنزلة حلا بعد ٦٠٠ سنة لذلك العهد لما صعدا من الجليل إلى بيت لحم ومما زاد شهرتها تأفُّقاً وخلّد لها ذكراً مؤبداً وأولاها تفردا في جميع القطر الفلسطيني ولادة الاله المتأنس فيها كما تنبأ عنه ميخا.

م م: نعـمّاً نطقـت أيهـا العزيـز فـإن مـا اسـتقدمنا إليهـا إن هـو إلا مزارهـا الجليـل ومهـد المخلّـص المتجسـد فيهـا فهيـأ بنـا نـزره لـتروي غليـل عيادتنـا ونقـدّم للإلـه المتأنـس ذهـب خشـوعنا ولبـان إيماننـا ومـرّ احتمالنـا - ثـم إنهـما خفًّـا إلى المغـارة الخلاصيّـة وأسرعـا إلى كنيسـة المولـد التـي هـي في الجانـب الشرقـي مـن بيـت لحـم في رَبَـض المدينـة القديمـة بوطـاء مـن الأرض فـما كادا يدخلانهـا حتـى اسـتبانت لهـما بمشـهد جليـل يسـتلفت الأبصـار فشـاهدا فيهـا خمـس حنايـا يفصـل بـين كل منهـا صـف مـن أعمـدة الرخـام ومـا بـين صحتهـا وخورسـها فسـحة منفرجـة وهـي مشرقـة مضيئـة بمـا فيهـا مـن الـشُرّف والنوافـذ وفي جدرانهـا بعـض آثـار الفسيفسـاء (وهـي قـد تزيّنـت بهـا في الجيـل ١٢) وظهـر لهـما أن سـقفها لا يتجـاوز القـرن السـابع عـشر أخـيراً وجـدا في طـرف الكنيسـة الغـربي بابـين مـن حديـد أحدهـما وهـو الجنـوبي يـؤدي إلى ديـر الـروم والآخـر وهـو الشـمالي يقـضي بداخلـه إلى ديـر الآبـاء الفرنسيسـيين فاجتـازا بـه وذهبـا تـوّاً إلى المهـد المقـدّس حيـث أدّيـا إتـاوة تقواهـما عـن نفـس كريمـة حـرة ووفيـا بفـروض زيارتهـا للطفـل الالهـي حتـى إذا انكفـأ عـن ذلـك المـذوذ أشـارت مريـم إلى منصـور أن يواصـل حديثـه عـن أصالـة هـذا المـزار الشريـف فقـال:

مـص: إن جميـع اليهـود الذيـن مـن عشـيرة داود جـاؤوا بيـت لحـم هـذه ائتـماراً بأمـر اغوسـطوس قيـصر وصعـد إليهـا أيضـاً يوسـف ومريـم ليكتتبـا فيهـا فلـما لم يكـن لهـا موضـع في منازلهـا أويـا إلى مغـارة في جانبهـا الشرقـي حيـث وضعـت مريـم طفلهـا الأهـلي ولا يخفـى أن هـذا المـزاد كان منـذ ولادة المخلّـص محفوفـاً بـضروب التجلّـة والإكـرام ولا يـزال متنافسـاً لعبـادة المؤمنـين فالقديـس ايرونميـس في إحـدى رسـائل إلى القديسـة بـولا يـروي لنـا

أن ادريانس الملك لما أراد أن يستأصل المزارات الثلاثة (أي القبر المقدس والجلجلة ومنارة المولد) التي هي من مشاهير الآثار وأشرف التذكارات في الدين المسيحي كرّسها لعبادة الآلهة الكذبة ونصب فوقها تمثالاً لتموز ونصباً من خشب في نفس المغارة التي وُلد بها السيد المسيح فإذا صحّت الرواية وجب القرض بأن ذلك الصنم وتلك الخشبة المنحوتة لم يلبثا أن محقا وتزدّيا في مهاوي الإعدام لأن اوريجانس في معرض كتابته عن مغارة المولد لم يذكر لنا عنها شيئاً وجل ما ورد فيها عنه قوله «وفي بيت لحم المغارة التي ظهر فيها باري البرايا متأنِّساً ويُشار إليها بالأصابع لأنها لم تكن لتخفى على أحد من الناس وجميعهم على اختلاف مذاهبهم يقرون بأنه فيها ولد يسوع معبود النصارى» وأثبت هذه الحقيقة لقرنٍ بعد اوريجانس اوسابيوس في تاريخه وكتابه في ترجمة قسطنطين ومما قاله فيها «إن القديسة هيلانة بنت للإله الذي تعبده هيكلين أحدهما في جبل الطور حيث صعد المسيح والآخر في مغارة المولد القاتمة الأعماق... وزيّنت هذا (أي معبد مغارة المولد) بالتحف النفيسة ثم لم يلبث ابنها قسطنطين أن فاقها غيرة على احكام صنعتِه وتنافس بتزيينه بزينة ملكية منقطعة النظير» وفي نحو سنة ٣٣٣ شاهد زائر بردو الكنيسة التي شادها ثمت الملك قسطنطين كما أنه معلوم لدى من له إلمام في التاريخ أن القديسين بولا واسطاكيا في رسالتها إلى مرسلة قد أطنبتا في وصف أبنية هذا المزار الجليل واثبات أصالته والحض على تكريمه واجلاله فتلك الكنيسة التي بناها قسطنطين وأصلحها من بعده بوستنيانُس ما زالت ولن تزال تدل أبداً دلالة صريحة على أبنية المغارة القديمة التي أوي إليها

يوسف ومريم ليلة ميلاد الكلمة المتجسد الشريفة رغماً عن تداول الأيام لها وتحكم صروفها وحوادثها فيها بين تهدّم وتجدّد واستئناف بناء ولا حاجة إلى أن أصفها لك فقد شاهدتها بعينيك أما مولد المسيح أي مسقطه فهو كما ترينه مصفح بقطعة من الرخام الأبيض وفي وسطه نجمة فضية قبل أن نبوليون الثالث هو الذي وضعها فيه وعليها الكتابة الآنية «هنا ولدت مريم العذراء يسوع المسيح» وأمّا المذود الذي أضجعت فيه العذراء طفلها الإلهي وسجد له الرعاة فيه فهو منقورٌ في الصفاة ومصفح بالرخام الأبيض وأسفله مسجوفٌ بصورة جميلة تهيئ للطفل يسوع في مهده.

وكانت مريم تصغي إلى منصور بلذة وانبساط وهي تتأمل بسرّ الفداء الإلهي وتشكر لله رحمته الغزيرة التي أفاضها على أبناء آدم الذين أقالهم الكلمة الأزلي ميلاده من صرعتهم وصالحهم مع أبيه الأزلي ثم إنهما قفلا عائدين إلى القدس بقلوب مفتنة ونفوس قانتة تسبّح بحمد ربها.

الفصل العاشر

في سفرهما من القدس إلى مرسيليا

•••

وبعد أن انتهيا من زيارتهما استبضع منصور بضاعة من مثل آواني قدسيّة فاقتطعها للتجارة وهبط بها إلى يافا وكان إذ ذاك موعد الباخرة الافرنسية «مرسيليا» فركباها وأبحرت فيها إلى طرابلس الشام مسقط رؤوسهما فصرفا ثمت سحابة نهارهما في مشاهدة سيادة المونسنيور بولس فرمنط لندي ثم أقلعت بها السفينة من طرابلس إلى اللاذقية فاسكندرونة فمرسين فأزمير فبلاد اليونان ثم مرسيليا وكان أثناء سفرها وجه البحر صقيلاً هادياً وأديم الجو صافيًا فلما أخذت الباخرة تشقّ عباب البحر صعد المنصوران إلى ظهرها يتمشيان عليه تنزّهاً وتفرجاً على ما انتظم بجيد ساحل ذلك اليم من الثغور القديمة العهد التي تسترق هوى الرائي بديع مرآها وهذا ما اكتنف أريافه من الحدائق والرياض التي تلقي عليها ظلالها فتستهوي الفؤاد بنضارة اخضرارها فكانا تازة يصرفان الفكرة في عمل الباخرة وكيفية مخرها للعباب العظيم الموج والكثير الارتفاع فتتخيّل لهما أنها بسيرها الحثيث أحد كماة الفرسان ينزل في الميدان بهيبة وسطوة فلا يرى من مناوئة أو هي كأحد نينان البحر يركب من المياه فيتصرف بحركاته كيف يشاء وطوراً يتأملان في تلك الغمار المنبسطة قدامّها تلاعب أمواجها ريح شرقية فتنقلب على بساطها الأزرق يتلألأ زبدها في نور الشمس ذهباً وبضوء الليل لجيناً والدّلافين تسابق الباخرة في السير وتطاردها مجتمعة ومنفردة والقبّة الزرقاء فوقها مجلوّة منفرجة لا

تعلو جوّها غيمة ولا تشوب جمالها عتمة حتى إذا غاب عن أبصارها عالم البر وجها ألحاظهما إلى عالم السفينة فما عادا يسمعان حينئذ سوى جعجعة الدواليب تدور بحركة منتظمة وتطنّ في آذان الرّكاب دون انقطاع وزمجرة البحر الغامر وهبوب الرياح الصافرة المتمايلة بالسفينة إلى اليمين واليسار وقرقعة الحبال المتطايرة ألعوبة بأيدي الرياح وجليات البحارة في حركاتهم المختلفة بين صعود ونزول وتلقي أوامر ومعالجة ذوي الدوار ووجبات الأمواج المتكسرة على جوانب الباخرة يتطاير زبدها منتشراً وهلم جرا فظلا على هذه الحالة أياماً إلى أن بلغنا مدينة مرسيليا أهم مرفأ للبلاد الافرنسية فخرجا إليها منشرحي الخاطر ناعمي البال مرددين آيات الشكر للعناية التي أوصلتهما إليها بسلامة وعافية.

الفصل الحادي عشر

في مرسيليا

•••

حلّ المنصوران مرسيليا على الرحب والسعة فأقاما فيها أياماً استراحة من العناء الذي حلّ بها في عالم البحار وتشوقاً إلى الوقوف على آثارها وأسرارها فأخذت مريم تقلّب كتيباً عثرت عليه في النزل حيث حلّت فإذا به دليل مختصر وضع لهداية السياح الذين يأمّونها ويهوون التجوال في أحيائها فساعدها ذلك على زيارة ما تفرّد فيها من الشوارع والحدائق والقصور والمنازل والأنزال وغير ذلك مما لم تفُتها وقرينتها رؤيته وكان مما أعجبها في ذاك الكتيب لمحة بيّنت لها قدم تلك المدينة وساق تاريخها فلخّصتها في جملة أسطر ودفعتها لمنصور ليطالعها فاستحسن أن تتلوها هي عليه فلبّت طلبه وأخذت تسردها بلهجة فصيحة ومنطق رخيم وحركة لطيفة قالت لله درّها:

إن مرسيليا من أقدم مدن فرنسا وأعظم ثغر في ناحيتها المعروفة بخور الرين Bouches du -Rhone لأنها أنشئت قبل المسيح بستمئة وعشرين سنة وكان أول من اختطّها جماعة من اليونان سكان فوثيا Phocee أما أحوالها فقد اضطربت عليها في بادئ أمرها لما تحملته من الجود والاعتداء ومواصلة منازلة أعدائها لها لكنها استعذبت طعم الراحة في نحو القرن السادس ق. م. أخذها أحد نواب سيروس لان سكانها اعتصبوا وأهل فوثيا واونيا عصبة واحدة فصدقوا عدوهم القتال وآثروا الموت على الحياة في سبيل المدافعة عن حقوقهم الوطنية وبالجملة

إن مرسيليا قد أصابها ما أصاب غيرها من المدن من تداول الأيام لها بين شدة ورخاء وضيق وسعة تارة يخدمها الأمن وتسفر لها طوالع السعود وطوراً يشوّشها الاضطراب وتثقلها النكبات وتظلم بوجهها ليالي النحوس إلى سنة ٤٩ م. لما افتتحها قيصر الرومان عنوة. ومما امتاز به سكان مرسيليا حصولهم على البشرى بالإنجيل فيل سواهم من مواطنيهم الافرنسيين ومما ترويه تقاليدهم المتعارفة لديهم ان أول من وطأ تربتهم مبشراً بالمسيح عندهم هو لعازر وأخته مريم. في القرن الأول المسيحي كانت مرسيليا مشيخة رومانية لكنها لم تكد تخلو من مناوئين طالما عكّروا كأس صفائها وضيّقوا على تجارتها إلى أن صارت إلى إمرة الأفرنسيين في أوائل الجيل السادس أي ٥٣٧ فلعبت حينئذ دوراً مهما بسياستها وتقدمت كثيراً بتجارتها التي سابقت بها في ذلك العهد أعظم مدن أوروبا كبيزا وجنوة والبندقية الخ.. وفي سنة ١٢٥٦ افتتحها كارلس أنجو فأقام عليها حاكماً من قبله لكنها لم تلبث أن تحررت من حكمه واستقلّت بتدبير شؤونها وفي أواخر الأجيال المتوسطة اتسع نطاق حكمها وامتدت سلطتها فتناولت جميع الشطوط البحرية وهي على أمل الانتصار والظفر بمن يرى مناوأتها وقد جرى لها ما جرى إلى أن اشتهرت بها الأحكام العرفية تحت قيادة القناصل الستة المنتخبين من الشعب ولكن لم تدم لها الحال على ذلك المنوال لأن حاكم بروفنثا جرّد عليها سبعة آلاف مقاتل فقتها قهراً وقسراً ١٦٦٠ وسنّ لها شرائع وأقام له بها حامية تقيه كل حادث وطارئ. وقد مهّد لها قدم التقدم والنجاح على عهد كولبر بيد أن ذلك لم تطل عليها مدته لأنها منيت في شهر أيار ١٧٢٠ بداء وبيل شديد الوطأة عنيت به

الطاعـون الـذي فتـك بأكـثر سـكانها وقـد اشـتهر بهـا وقتئـذ رجـال أشـدّاء بـل تفـردوا بشـجاعتهم وجـرأة جنانهـم وفي مقدمتهـم المطـران بالسـونر الـذي صعـد الهيـكل حـافي القدمـين وبعنقـه حبـل طويـل لـدى تقدمـة الذبيحـة الالهيـة اسـترضاء للعـدل الالهـي وتسـكيناً لوقـدة غضـه ولم يمـضِ عـلى ذلـك مـدة مـن الزمـان حتـى سـكنت سـورة الهيضـة وهـدأت ضلـوع المدينـة المضطربـة الجـأش الواجفـة الـسرب وتقلّـص ظـل ذلـك الضيـف الثقيـل في الشـهر ذاتـه مـن السـنة التاليـة أي ١٧٢١ بعـد أن أودي بحيـاة أربعـين ألقـاً مـن سـكانها وكان يحكمهـا الأعيـان حتـى سـنة ١٧٦٥ واضطـر سـكانها إلى الجـلاء عنهـا أثنـاء تلـك الثـورة الهائلـة المشـهورة في عصرهـا إلى أن حلـت سـنة ١٧٩٠ إذ كـثر في الشـعب اللغـط والجلبـة فشـاغبوا الحكومـة وهيّجـوا الـشر عليهـا فظفـروا بأمانيهـم وأدركـوا غاياتهـم مواقـع عديـدة كانـت بينهـم أشـهرها الموقعـة التـي كان يـردّد بهـا أهـل مرسـيليا النشـيد المعـروف بالمرسـلياز وفي سـنة ١٨١٤ كان لمرسـيليا اليـد الطـولى والقـدحُ المعـلّى في موقعـة واترلـو وفي الالجـري واشـتهرت أيضـاً أيـام فتـح لاسـبس ترعـة السـويس وقصـارى القـول أنهـا قـد خدمـت بلادهـا برجالهـا الأعاظـم الذيـن يضيـق عـن ذكرهـم المقـام.

أمـا موقعهـا فعـلى منفـذ وادي الـران لكنهـا مـع ذلـك بعيـدة عنـه وهـي أعظـم مرفـأ لفرنسـا خصوصـاً لمـا تجـدد اصـلاح مرسـاها الـذي أصبـح الأهـم بـين مـراسي البحـر المتوسـط ومرسـيليا هـي وصلـة التجـارة بـين فرنسـا وثغـور البحـر المتوسـط وافريقيـة الشـمالية والشرقيـة والهنـد والـشرق الأقـصى وهـي مدينـة صناعيـة ذات مصانـع (كراخـين) لتعديـن

المعـادن وتصفيتهـا ومصابـن ومعـاصر زيـت وعـدد سـكانها نحـو أربـع مئـة وخمسـين ألفـاً.

ثـم أن مريـم أعـادت كراسـها إلى موضعـه والتفتـت إلى منصـور تقـول لـه إن عنـدي أمـوراً أحدثـك بهـا عـن مرسـيليا وأحوالهـا لكنـي أخـاف أن أطيـل عليـك الـكلام فيسـمك ولا يسـتمرئه ذوقـك فكفـى بمـا قـد سـمعته دليـلاً يهديـك إلى حالـة مرسـيليا الطريفـة والتليـدة فهيـا بنـا الآن إلى زيـارة سـيدة البحـار المعروفـة (بـتردام دالاكارد) شـكراً لهـا عـلى مـا منّـت بـه علينـا بإيصالهـا إيانـا سـالمين إلى أرض الفرنسـيين واسـتعانة بهـا عـلى الفـوز بالنجـاة مـما لعلـه يعـرض لنـا مـن مخاطـر البحـار في غـمار الأوقيانـس المحيـط.

الفصل الثَّاني عشر
في سفرهما إلى باريس

•••

بعد أن قضيا كما أشرنا أياماً في مرسيليا ارتحلا منها راكبين القطار السريع الذي يقلّهما إلى باريس فسرّت مريم أثناء سفرها بتلك المرائي البديعة لا سيما لما ولجت حاضرة التمدّن والعمران وقاعدة الدولة الفرنسيّة وأعجب منصور بما فيها من محاسن فيّة وآثار صناعية وعاديات تاريخية ومتاحف ملكية وفئات أدبية ومزارات دينية إلى غير ذلك من مآثرها التي لو تتبعها الكاتب مقسّمة على عدد أيام السنة ما كفاه ذلك. فرنت إليه مريم وسألته حسب مألوفها قائلة وأبيك أيّها القرين أن تشرح لي ما يُحدّ الدائرة الباريزية.

إنها ليست ذات حدود بحصر الكلام بل إنها تتصل بواسطة معاير لا يشعر بها الأصقاع المجاورة لها فهي متحدة بالأنحاء الشمالية وجهات نورمندية ومدن لوار (Loire) وبورغانيا واعلمي أن الشروط الثلاثة المطلوبة لتعيين المدينة هي عامة لكل الحوض الباريزي أولاً: نظراً للموقع وهو من أعظم محسناتها فإنها على مقربة من البحر فضلاً عن أنها تتمكن بسهولة من مدّ علاقاتها في سائر البقاع الافرنسية.

ثانيا: نظراً للنتو والارتفاع في تربتها فانه معتدل في جميع أنحائها خلا بعضها ومنه يمتد البصر في مسارح ومساحات رحبة فسيحة كأنها متوازية الافق. ثالثاً: نظراً إلى اعتدال مناخها وجودة هوائها فهذه الأمور الثلاثة قد جعلت الأرض الباريزية مركزاً تتجه إليه الأنهار

الجاريــة والمنسربــة إلى باريــس عــلى مثــال الأشــعة المحيطــة بالدائــرة وصيرتهـا محطـاً لرحـال الانسـيّين يتقاطـرون إليهـا مـن كل صـوب وناحيـة.

أمـا تركيـب هيئـة أرضهـا فمختلـف اختـلاف جهاتهـا فـإن أراضيهـا القديمـة في الجنـوب الشرقـي تشـبه كل الشـبه أراضي مورفـان (Morvan) بكونهـا ذات حجـارة صوّانــة ورخــام ســمّاقي وكل مــا طــرأ عــلى طبقتــي الأرض الثانيـة والثالثـة مـن التغـير والانقـلاب تـراه في الغالـب متوفـراً فيهـا ففـي اكـزوا (Auxois) مثـلاً حجـر الحبـس الصلـب الغـير المحـترق وفي سـفح صرود اللنكـر (Langres) الحجـارة الكلسـيّة الجيريـة ذات الجـص وفي غابـة فنتنبلـو (Fontainebleau) الحجـار الرمليـة والرمـال والصلصـال والأتربـة الكلسـية الممزوجـة بالصلصـال وهلـمّ جـرا. فاختـلاف هيئـة هـذه الـتُرب يدعـو ضرورة إلى اختـلاف اسـتعدادات الحراثـة والزراعـة والعمـران.

م م: إن حدثـك لأحـلى يـا عزيـزي مـن الشـهد فكـم بيّنـت فيـه مـن فوائـد وكـم أفصحـت عـن عوائـد فللـه درك مـن جغـرافي كشـف لي إذ أتى عـلى بيان تلـك الاختلافـات المتنوعـة في طبقـة الأرض الباريزيـة عـن تضلُّعـه مـن فنـون العلـوم فلـم يـدع منـزغ ظفـر إلا رمـاه ولم يـذر ضالـة إلا نشـدها فوجدهـا.

مـص: دعينـا الآن مـن المـدح والتقريـظ وهلمـي بنـا نجـول في العاصمـة الافرنسـية فـنرى في شـوارعها ومتاحفهـا واثارهـا مـا يـسر الخواطـر ويبهـج النواظـر.

م م: لــك ذلــك وكرامــة ولكــن نشــدتك اللــه إلا بســطت لي شــيئاً عــن تاريخهـا وبيانهـا الإداري ليعـود علينـا تجوالنـا بأغـزر فائـدة وأعـم نفـع وقـد سـاءني أني ذهلـت عـن مفكـرتي فتركتهـا نسـيّاً في غرفـة حللناهـا بنـزل

مرسـيليا ولـولا ذلـك لمـا سـمتك هـذه المشـقة وأورثتـك الملـل بكـثرة مـا ألقيتـهُ عليـك مـن المسـائل فظنـي بـك أن تصـدق أمـاني بالخـوض في هـذا الموضـوع وهـو مـما يخطـر ولا شـك عـلى ذهنـك حقائـق الأحـداث ويجلـو صورتهـا إلى المـدارك بحيـث تمثّلهـا لعـالم الحـسّ. فجـلّى منصـور حينئـذ ببـصره إليهـا ولم يتمالـك أن ضحـك مـن براعـة مطلبهـا فقـال.

مـص: إن مطلبـك ولـو عـزّ لمـا يترتـب عـلى الأخـذ بـه مـن اسـتغراق السـاعات لا بـدّ مـن قضائـه بحيـث تكونـين ثانيـة العطـف رخيّـة البـال بنجـوةٍ مـن البلبـال فاعلمـي أعـزّك اللـه أن باريـس قـد انفـردت بأحـوالٍ وصفـات خاصـة لم يفـز بهـا سـواها فقـد رأيـت مـا أكسـبها حسـن موقعهـا مـن المنافـع وهـي في وسـط ذلـك السـهل المنفـرج الفسـيح الأرجـاء المنبسـط شـمالي فرنسـا فضـلاً عـما أوتيتـهُ مـن فرائـد الفوائـد بالنظـر إلى اتجـاه شـوارعها العظيمـة إلى نقطـة واحـدة وهـي تسـير بابـن سـبيلها إلى أيـة جهـة أرادهـا لأنهـا محطـة السـكك العظيمـة التـي تسـير مـن البحـر المتوسـط إلى المنـش (Manche) ومـن الأوقيـاس إلى الريـن (Rhin) فالأقـدار قـد أعـدّت باريـس لتكـون لفرنسـا قاعـدة الحضـارة والصناعـة والتجـارة ومركـز العلـوم والآداب فإنهـا منـذ نشـأتها أي لمـا كانـت منضمّـة إلى جـزار الثيتـي (Cite) ومـار لويـس فـد كانـت في مـكان مـن الأهميـة والشـهرة إذ كانـت تعـرف باسـم لوتـاث (Lutece) واسـتفاضت شـهرتها في الجيـل الثالـث عـشر في جميـع الأنحـاء الأوروبيـة بمدارسـها وكلياتهـا التـي حفلـت جماهـير الطلبـة وأئمـة العلـماء الأعـلام الذيـن كانـوا يأمونهـا مـن جميـع المـدن المجـاورة فأخـذ ملـوك فرنسـا منـذ القـرن السـادس عـشر ينظـرون إليهـا بطـرف سـقيم وقـد امتعضـوا مـن إقبالهـا وازدهـار تقدّمهـا فتربصـوا بهـا الدوائـر

محاولـين تسـكين حركتهـا وإخـمال جاههـا والوضـع مـن درجتهـا ولكـن يـا بئـس مـا حاولـوا فـإن مسـاعيهم تلـك ذهبـت أدراج الريـاح وتقطّعـت دون بُعـد صيتهـا أعنـاق مطامعهـم لأن ذكرهـا أخـذ يضطـرب في الأرجـاء وبعدهـا يذهـب في النـاس كل مذهـب حتـى أصبحـت مركـز الفصاحـة والعلـوم وأَربى عـدد سـكانها في أوائـل الجيـل السـابع عـشر عـلى نصـف مليـون وفي ١٨١٧ بلـغ سـبعمئة وأربعـة عـشر ألفـاً واليـوم اتسـع نطاقهـا بالأحيـاء والشـوارع الحديثـة التـي شـيُّدت فيهـا وهـي تحتـوي مليونـين ونصـف مليـون في ضمـن أسـوارها ونصـف مليـون آخـر في ظاهرهـا باعتبـار ضواحيهـا ولمـا كانـت مسـاحتها تضيـق عـن وسـع أهلهـا شرعـوا يبنـون في أرباضهـا وضواحيهـا الـدور والقصـور حتـى تألّفـت مـن ذلـك البنـاء عـلى التراخـي قصبـاتٌ ومـدن جـاءت هـي والعاصمـة المحجوبـة بأسـوارها مجموعـة مدنيـاً يعرفـه الجميـع بباريـس وهـي لا تفتـأ آخـذةً في النمـو والعمـران عـلى تـوالي الأيـام ولا تـبرح محطـاً لرحـال الجميـع أكـثر مـن كل عاصمـةٍ سـواها فـإن الإنكليـزي مثـلاً إذا مسّـت بـه الحاجـة إلى المهاجـرة ذهـب إلى الهنـد والألمـاني ظعـن إلى أمريـكا أمـا الافرنـسي فهجـره باريـس.

م م: لا غـرو إذا غاليـت في وصفهـا وهـي بمعـزل عـن كل وصـف واطـراء فـلا حاجـة إلى أن اسـتزيدك بيانـاً وقـد عاينتهـا عيانـاً وحقـق لي الخـبر الحُـبر فـإني أحسـبني سـعيدة إذ شـاهدتها فحمدتهـا فهـي والحـق يقـال أشـبه بمدينتـي أثينـا ورومية في أيامهـما الأُول فللـه درّهـا مـن قاعـدة ضمـت إليهـا حيـاة كل فـرد مـن الانسـيين فتعـددت فيهـا الأطـوار والحـالات.

ثـم إن مريـم إذ تأملـت مـا ازدانـت بـه باريـس مـن البدائـع في محكـم انتظامهـا وسرحـت الطـرف في ريـاض محاسـنها قبضـت عـلى أمّ قلـمٍ كان في حقيبتهـا وطفقـت تمـلي عـلى لسـانه مـا داخلهـا مـن الطـرب والاهتـزاز وتنظـم فرائـد محاسـنها في سـلك نظمهـا الرقيـق قالـت حيّاهـا اللـه:

طابـت لنا يا أُهيل الودّ باريسُ

فأسـكرتنا بصهبا أنسـها الكُؤسُ

أتاك روضه حسـنٍ في بسيطتنا

ملائكٌ سـاكنوها أم فرنسـيسُ

وهـل نرى حورُ أعيانٍ بروضتها

أم قـد تـرآءت لنـا باللـهِ بلقيـسُ

أم أنّ نجـماً يجلَي الهمّ في ظُلم

عن سـاكنيها مضيءٌ أم نباريسُ

نعم تجلَّت لنا في الحسـن آيتهُ

وشـاهدي منهُ جنّات فراديسُ

وطول أعمدةٍ من دونها سُـحبٌ

تحبـو وراحٌ ورَوحٌ ثـمّ ترغيـسُ

فـإن تبرح بك الأحزانُ جاهدة

فأُمها فهـي للرجـاء تنفيـسُ

فكم بها ما يروق الطرف حُسـنِ

ويشـتهيهِ سـوادُ القلب والتوسُ

فأنهـا منهلٌ وِردُ لكل ظمي

والخـير أجمـع للمـزدار مّبجـوس

فللفخـارِ على أحيائها عَلَمٌ

وبـارقٌ منهـا الدهـر مقبـوسُ

فاغتـم من العيش ما ملكت أَرغدهُ

منهـا فأنـتَ بهـا مـا دمت مَرغوسُ

أَربت لعمري على وصفي محاسـنها

فوقـاً فليـس لإحصائهـا مقاييـسُ

فكـم بها من كرامٍ طار صيتهم

جحاجحٌ إنهم يوم الوغى شـوسُ

لهم بأُفق مسـاعيهم حِجى

وفي خزائـن آدابٍ قواميـسُ

وكاتـبٍ مغلقٍ له لتطليس آ

ثـار المعـارف والأفضـال تطريـسُ

وصالـحٍ خيرٍ فيهم لهُ أبداً

في بيعة الله تسـبيحٌ وتقديسُ

وكم صروحٍ وأبراجٍ بها شـمخَت

هو اشـتهارها في الآفاق قُدموسُ

أُخوَّة فحِرارٌ ثمّ تسـويةٌ شعارها

حازاهـا رب ومـرؤوسُ

لأهلها شـارةٌ في غرّ أوجُههم

تـدلُّ أنّ إلهنـا منهـم لمأنـوسُ

فليـس منهم كليلُ الحدّ مغتَصٌ

ومـا بهـم مـن عـن الخيرات مرجوسُ

ففي جوارهم إني لمُجبرةٌ

يـا ليـت حظـي مـن الغـبراء باريسُ

فلـما وقـع في سـماع منصـور نظمهـا المسـتظرف ووصفهـا المسـتطرف استشـعرت نفسـه حركـة وهـزّة ووجـد لـه فيهـا قشـعريرةً ولـذّة فقـال لهـا وقـد برقـت أسـارير وجهـه.

مـص: لا فُـضّ فـوكِ ولا عـاش مـن يشـنوك فإنّـكِ قـد نظمـت فأفصحـت ووصفـت فاسـتوفيتِ فمـن أيـن لـك حسـن البيـان هـذا وجـودة المعـاني تلـك وأنّى اقتبسـتِ حـلاوة الاشـارة وملاحـة الاسـتعارة ولطافـة المسـالك واسـتقرار التركيـب ونظـم المعـاني في سـلك القـوافي.

م م: لا تعجـب أيهـا القريـن الحبيـب مـن بَـرضِ مـا ذكـرت فـان للبـشر نـوراً طبيعيـاً صاغـه فيهـم المبـدع الخـلّاق صيغـة حسـنة لإدراك حقائـق الأمـور

وإني قد رُزقت بتوفيق الله من أحاسن الأمور الغريزية من مثل حدّة الفؤاد وتوقّد الذهن ما حدا بي إلى تكميلها وتزيينها بصناعة خارجيّة وتوشيحها ببردة بهية ولما كنت من ذوات الجنس اللطيف اللائي يملن بالطبع إلى الرقة واللطافة وإبراز العواطف المستقرّة في أفئدتهن لم أرَ علماً أجدر بي مطابقاً لحالتي أتوسل به إلى التعبير عما فُطرت عليه نفسي من الشواعر والعواطف إلا الفصاحة التي استفدتها من الانكباب على الدروس والمطالعة فلبستها حلّة وتزيّنتها حليةً ولذلك قد رمقتني منك العين لأجلها بالإجلال وتحمّلت نفسك بها لميلها إليها بتتابع الإدلال.

مص: إذن هلمّي بنا نواصل رحلتنا وعليك أن تقومي بوصف ما ترين من المدن والثغور فان يراعكِ لأمضى يا عزيزتي من الحسام المهنّد في مثل هذا الباب.

م م: أمّا التاريخ فليس على حبل ذراعي أن أخوض عبابه فأوقفك عليه لأني لم أدرس أصوله ولم أطالع فصوله وأمّا بيان ما يتعرّض لي من المرائي والمشاهد والمناظر فافعله وكُرمى لك ونعمة عين.

الفصل الثَّالث عشر

في سفرها إلى بروكسل وما دار بينهما من الحديث في شأنها

•••

بعد أن صرف القرينان في قاعدة الماء الافرنسي شهراً تحملا مرتحلين إلى عاصمة البلجيك بروكسل حيث قضيا حيناً في تفقد آثارها ومعاهدها ومعاينة أهاليها فخرجا منها ذات يوم يتنزّهان على شاطئ نهر السان (Senne) المنتظمة الحدائق بحافتيه والفيئة ظلالها الوارفة عليه فكان مشهده مفتاحاً لمقفل الخواطر وجلاء لعيون الناظر فاسرع إلى مريم وهي تطوف في تلك الرياض المتشعبة بين تحذر الماء من الكلام أحسنه وسهل عليها صعبة وغامضة فشرعت تحدث منصور بمطرد خلقها ورقيق منطقها عن بلجكة وشؤونها قالت لا فض فوها:

م م: إن بلجكة إحدى جهات بلاد القاع (Pays-Bas) واقعة على ضفة البحر الشمالي في منفذ أودية نهري الموز (Meuse) والرين (Rhin) اللذين ينسربان إليها من أوروبا المتوسطة وهي تلقاء انكلترا ولم تبلغ ما بلغت إليه من نجاح تجارتها وازدهار حضارتها إلا بفضل موقعها الفريد الحسن والمنقطع النظير.

مص: وكيف تراءى لك مناخها؟

م م: إن مناخها يختلف على اختلاف مواقعها فإن جهتها الجنوبية الشرقية لهي أشدّ برداً وأكثر جفافاً وأما جهتها السُّفلى في الشمال الغربي الواقعة على مقربة من البحر فهي رطبة مخضلّة رغماً عن ارتفاع مساحتها لكنها على نحو ما معتدلة المناخ وكثيراً ما تتجمّد في

سبرات الشتاء وغدواته الباردة مياهها وتجلد أنهارها حتى تجري عليها العجلات كما يسلك على اليابسة وأن فيها نهرين عظيمين الموز الجاري بجهتها الغربية والاسكوت (Escant) المتسرب في الناحية الوطيئة منها وكلاهما لا يختصان ببلجكة اختصاصاً مطلقاً لأن منبعهما في هولندة ومعظم امتدادها في الأراضي الأفرنسية وإن شئت أن تعلم عدد سكان البلاد فان الاحصاءات الأخيرة تشير إلى أن فيها ما ينيف على السبعة ملايين وان المواليد عندهم تبلغ في السنة ٥١ ألفاً وشعوبها الآهلة بها تنتسب إلى عشيرتين: الفالونيين (Wallons) المنتشرين في جنوبيها وشرقيها وهم أخوة لسكان فرنسا الأقدمين يتكلمون بالافرنسية. والفلاماندیّين (Flamands) القاطنين في غربيها وشماليها وهم يذكروننا سكان انكلترا أو هولندة الألمانيين لتقارب لهجتهم وتشابه ألسنتهم وكلا العشيرتين على اختلاف وتغاير في أذواقهما وأطوارهما وأن هذه المملكة الصغيرة لم يستتب لها الملك والاستقلال إلا ١٨٣٠ لمّا تألّف فيها مجلسان أحدهما للشيوخ والآخر للنواب والى هذين القرقين مرجع سن الأحكام ويرأسها الملك الوطني الذي بيده زمام الأمر فلما استقام لها الأمر أصابت من النجاح بالنصيب الكافي والسهم الوافي إذ قد توفّرت فيها السكك الحديدية التي رغماً عن ضيق مساحتها شغلت منها أربعة آلاف وخمسمئة كيلومتر وأخذت الزراعة فيها تخطو بقدم التقدّم وأربت التجارة على ٥ مليارات (بلغت صادراتها ثلاثة آلاف و٣٧ مليوناً وواردتها ٢٧٢٠ مليوناً) أما الصناعة فيها فحدث عنها ولا حرج لأنها هي التي أحرزت لبلادها ثروتها الطائلة وهكذا أصبحت بلجكة من مصاف الدول الأوروبية الأكثر تقدماً ونجاحها بموقعها الفريد بين فرنسا

وانكلترا وألمانيا وبصادراتها المعدنية الوافرة ومشهور نشاطها الصناعي.

مص: ما لنا وكل هذا الشرح فنحن عنه بمعزل صفي لنا أن رأيت عاصمتها بروكسل النازلين نحن بها فأين هي من الحسن والجمال.

م م: إنها من الحسن بحيث أردت كيف لا وهي على ضفة هذا النهير المعروف بالسان الذي ذكرني لدى رؤيته أنهر لبناننا المتحدرة من ذرى شوامخه الشاهقة المطردة في اكنافه والجارية في جنباته تحفّ بها الحدائق والخمائل وتكلّلها الرياحين النواضر والأزهار البديعة المناظر فاحبب به من منظر أَخطر على بالي قول الشاعر:

ذ كرت ديارهم فجرى دميعي

فما أحلى الزهيرُ علي النهيرُ

ناهيك ما لبروكسل من كبر الأهمية التي أورثها إياها موقعها المركزي لأنها كما تراها بين نهر الموز والبحر متوسطة لفرنسا وهولندة وهي لم يتم لما انتشارها ولم تخطر في بُرد انبساطها إلا من الجيل الخامس عشر وليس فيها ما يستحق الذكر سوى فندقها الشهير وبعض آثار وعاديات وهي مدينة سِلمٌ موادعة لسائر البلدان شعارها السكينة والمؤالفة وتشبه باريس في رسومها اللطيفة وتصاويرها الظريفة وفيها من الوطنيين خمسمئة ألف.

مص: نعمّاً أفصحتِ ولكن فاتك أن تذكري شيئاً عن وفرة ثروتها الصادرة عن تعدين المناجم فيها واستخراج الفحم الحجري فإن معادن البلاد البلجيكية لا تقل عن مئة ألف وهي تستخلص منها

سـنوياً عشريـن مليـون طـن وليسـت صناعـة النسـيج والحياكـة فيهـا بأقـل نمـواً ونجاحـاً مـن الأولى.

م م: ألعلـك أيهـا القريـن لم تلحـظ أني ضربـت صفحـاً عـن أمـور كثـيرة مـن مثـل طبقـات أرضهـا وشـطوطها وهلـمّ

جـرا مـما لم يسـمح لي الوقـت بـسرده فيهـا أن الشـمس قـد تـوارت في الحجـاب وقـد حـان لنـا العـود إلى مقامنـا فهيـا بنـا نغـذُّ في السـير قبـل أن يدركنـا الظـلام.

مـص: بالصّـواب أجبـتِ فعلينـا لـدى وصولنـا إلى المنـزل أن نعـد السُـفرة فغـداً موعـد إبحـار الباخـرة الانكليزيـة (لنـدن) ولقـد عهدتـك مِسـفرةً ترتاحـين إلى ركـوب البحـار فـلا يأخـذك السـأم والضجـر مـما تعانينـهُ مـن الأهـوال والمشـاق في محيـط الغـمار.

الفصل الرَّابع عشر
في سفرها إلى شيكاغو

•••

غـادر المنصـوران بـلاد القـاع فركبـا الباخـرة الانكليزيـة (لنـدن) ووجهتهـما مدينـة شـيكاغو فسـارت بهـما تـوّاً إلى مدينـة فيلادلفيـا وهـي بلـدة حافلـة بسـكانها البالغـين مليونـاً وخمسـين ألفـاً موقعهـا عـلى خليـج دي لافـار (Delaware) وهـي ميناء عظيمـة للتجـارة شـهيرة بالصنائـع ومـن الولايـات المتحـدة في الشـمال الشرقـي منهـا فـما كادا يصلانهـا حتـى خفَّـا إلى نزلهـا الشـهير في شـارع فـين سـتريت (Vine Street) نمـرة ١٨٠٥ و١٨٠٧ فقضيـا فيـه ليلتهـما الأولى في العـالم الجديـد مشروحـي الصـدور متهلـلي الوجـوه وقـد تلقّاهـما صاحـب الفنـدق بسـعة ذرعـه وشـهامة طبعـه لمـا تخيّـل فيهـما مـن أَمـارات النيـل والكـرم والحسـب الناصـع وأنزلهـا عـلى الرحـب والسـعة حتـى طابـت منهـا النفـوس فأقامـا عنـده نحـو عشريـن يومـاً صرفاهـا في زيـارة آثـار المدينـة الجليلـة وكانـا قـد تعرفـا إلى بعـض الوطنيـين المقيمـين فيهـا فأنـس هـؤلاء بهـا وتعـزوا بذكرهـما عـن ذكـرى الوطـن حتـى أنـه كلـما جـال في خواطرهـم هاجـس الفـراق عرتهـم هـزّة غـم وانقبـاض صـدور فتسـفح منهـم الدمـوع وتهطـل العـبرات فلـمّا انقضـت المـدّة المعهـودة زايلاهـا يريـدان شـيكاغو فحلأهـا عـلى أن يقيـما فيهـا عامـة حياتهـما لكنهـما رغبـةً في انجـاز رحلتهـما ودّعاهـا بعـد نصـف شـهر وفي مرجوّهـما أن يعـودا إليهـا لمـا صادفـا فيهـا مـن رغـد عيشـها وبسـطة سـعتها وتوفّـر هنائهـا وإقبـال أهليهـا عليهـما بالأنـس والانبسـاط إقبـالاً

أنساهما كربة الغربة فحدّقت مريم حينئذٍ ببصرها إلى عزيزها منصور وبدرت سؤالها إليه قائلة.

م م: حبّذا لو ذكرت لي أيها القرين شيئاً من تاريخ شيكاغو وموقعها الجغرافي فتقلدني منه وفضلاً إذ تجعلني أبدد عن بصيرتي ما لعلّه لا يبرح مخيماً عليها من غيوم الجهل لتاريخ هذه البلاد الأمريكية وأطوار سكانها.

مص: أرى إجابة ملتمسكِ أيتها الزوج الأمينة ضربة لازبٍ لأن الزوجين ينبغي لها أن يشتركا في كل أمر من الأمور الممكنة للفريقين حتى يكونا بذلك جسداً واحداً ونفساً واحدة وإنما يضمّ القلوب ويقرنها برباط الألفة والوئام ائتلاف الأذواق وتساوق المبادئ واتحادها وهذه لا تُكتسب إلا بالعلم اليقين وبوحدة الدين وإننا بنعمة الله ندين بدين واحد هو الكاثوليكية التي درجنا في مهدها وترعرعنا في مبادئها ونشأنا مفطورين عليها وقد أُشربت قلوبنا حبها فنحن من هذه الحيثية سيّان تجمعنا رابطة وثقى لا تنفصمُ عراها أمّا العلم فإذا كان على نقصٍ وتغاير في الفريقين كأن يكون الواحد عالماً والآخر جاهلاً أو أن تتفاوت درجاتُه بينهما فإنه يحدث ولا ريب اختلافاً وتبايناً في الأذواق ونقصاً في المبادئ فينفي الواحد ما ثبت الآخر ويقبل الواحد على التماس ما أعرض عنه الآخر والعكس بالعكس وعليه فإذا ما أوقفتك على ما لا تزالين تجهلينه من تواريخ البلاد أكون وفيت بذلك حقاً أوجبه على مثلي شرع القرآن وعليه فإني لأفعل ذلك على نشاط من عزمي وارتياحٍ من طبعي بحيث يؤدينا بحثنا إلى بلوغ المراد من توفر

كـمال الاتصـال بيننـا نظـراً إلى وحـدتي العلـم والديـن وائتـلاف المبـادئ الناجمـة عنهـما: ثـم إن منصـور أخـذ يسـوق كلامـه أحسـن سـياق بلهجتـه المألوفـة وفصاحتـه المعروفـة فقـال لمريـم اعلمـي أن شـيكاغو وهـي مبنيـة عـلى جانـب بحـيرة وتعـرف عندهـم بسـلطانة البحـيرات وهـي قـد تعـززت وتحصنـت ١٨٣٠ وبلـغ اليـوم مجمـوع سـكانها مليونـاً وخمسـمئة ألـف وموقعهـا عـلى مدخـل الولايـات الكـبرى التـي أكـثر صادراتهـا الـذُرة فأجـدر بهـذه المدينـة أن تُلقّـب باهـراء العـالم ومدينـة اللحـم نظـراً إلى كـثرة غلالهـا ووفـرة مواشـيها ولمّـا كانـت متصلـة بواسـطة قنـاة بنهـر الميسيسـبي (Mississipi) كانـت لذلـك محطـاً وممـراً لمسـيلٍ جُـراف وعقيـقٍ متّسـع يخـرج منهـا فيخـترق أمريكـة الشـمالية بأسرهـا ممتـداً فيهـا مـن البحـيرات الكـبرى إلى خليـج المكسـيك وفيهـا خطـوط السـكك الحديديـة تحيـط بهـا إحاطـة السـوار بالمعصـم وهـي تـذرّف عـلى الخمسـين خطـاً.

م م: ذلـك مـمّا حبَّـب إليّ الاقامـة في ربوعهـا والسـكنى بـين ظهـراني أهلهـا فـإن أسـارير الهنـا والخصـب والاقبـال تـبرق لنـا ولا شـك عـن محيَّـا تربتهـا النـضرة فتولينـا عـزّاً ورغـداً وصفـاء وتجعلنـا نرتـع في مـروج خصبهـا آمنـين وعليـه فارغـب إليـك أيّهـا القريـن أن تحقّـق أمـلي فنتخذهـا لنـا دار إقامـة مـا حيينـا.

مـص: لا بـأس ولكـن ألا ترومـين اتمـام سـياحتك والوقـوف عـلى مـا لم يقـع عليـه طرفـك مـن مشـاهير بلـدان العـالم الجديـد.

م م: بـلى.. فمتـى جبنـا الآفـاق الغربيّـة وطوّفنـا في كل مدينـة أفـرد لهـا التاريـخ ذكـراً نعُـد حينئـذ إليهـا وحبّـذا العـود لـو قريبـاً.

الفصل الخامس عشر

•••

في محاورة دارت بينهما بشأن ما عايناهُ من القفار والهامه ومن فيها من الزنوج البرابرة أثناء سفرهما إلى كاليفورنيا

أَغدر رحَّالتانا شيكاغو قاصدين مدينة كانساس ثيتي الواقعة غربي سان لويس أشهر مدن المسيسيبي (سكانها ٤٥٠,٠٠٠) وفي هذه المدينة قلقت خواطرها وشُغلت قلوبهما واستضافتها هموم تسبّب لهما بها فراق من كان معهما من المواطنين الذين انفصلوا بحكم القضاء عنهما لكن منصور لمّا تذكّر قول الشاعر:

ذممت فراق من أهواهُ دهراً

وعدت رجعت عن ذمّ الفراقِ

فلولاه لما طاب التّداني

ولولاه لما عذُب التلاقي

راجعهُ حلمهُ وسكن بلباله وتلطّف في تسرية الغمّ عن حليلته بما فُطر عليه من بين المقال وانسجام العبارة ولذلك فقد رأى أن يبرح تلك المدينة قطعاً لدابر الخطرات المقلقة فتركاها وسارا يريدان الولايات الغربية ومقصدهما منها مدينة كاليفورنيا البعيدة الصيت والمستفيضة الشهرة آنئذ فمرّا في ولاية كولورادو (Colorado) وولايات مكسيك الحديثة (Neo-Mexico) وبلاد أراسونا (Arazona) قاطعين قفارها الجرداء وغاباتها الموحشة التي هي عبارة عن ملاجئ إلى الوحوش

البريّة والضواري الكاسرة وهذه البلاد تسكنها قبائل هندية ليست على شيء من التمدّن قد توغّلت في براري التوحش والهمجية وأوت إلى حمى الغلاظة وهم جميعهم يحرثون أرض الخمول والانحطاط ويقتاتون بأغذية الجهل وهم من سلالة العشيرة الوطنيّة التي لم يوجد في تلك البلاد قبلها سواها وكان عددهم يتراوح بين المليون و٥٠٠ ألف وبين الخمسة ملايين إلى حين دخول الأوروبيين أرضهم وينقسمون إلى أسباط متعددة مختلفة منهم الايركوزيون (Iroquois) والساميناليّون (Seminoles) وجميعهم قبائل رحالة لا يستقر بهم مقام فما كادت مريم تلحظ ألوانهم النحاسية وتتدبّر أطوارهم البدويّة حتى أسفرت عن ثناياها البيض وافترّت عن ثغر نضيد فصاحت وهي تحدق ببصرها إليهم: يا الله ما أشد عجبي وأوفى طربي فكأني بأهل البادية في بلادنا العربيّة قد أجلوا عنها وحلوا بهذه الأصقاع فوأبيك أيها العزيز وأن تنظر إليهم نازلين تحت الخيام والمضارب لا تحصرهم الأبنية والأظلال ولا بد لهم اللبث على حال فهم بذلك أشبه ولا مرية بعرب القارة العربية.

مص: على رساك أيتها العزيزة فليس كلّ ما ذكرت بمطابق لمقتضى الحال لأنهم قد يتشابهون بأمور ويختلفون أخرى وما أجدرني ببيان ذلك تمحيصاً للحقيقة أما وجه الشبه فلأن الفريقين كليهما أهل خيام وظعائن وأكنانٍ وغيرانٍ في الجبال يسكنون البرّ الأفيح وإنما يراعون في جولانهم وتخيّرهم البقاء على الأيام مراعي مواشيهم لا يبالون بالماء طاب أو خبُث ولا قلّ أو كثر ولا يحفلون بزكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم في أرضهم انتقال فصول السنة. أما وجه الاختلاف فلأن

هـؤلاء الهنـود الأعاجـم ليسـوا بأهـل أنسـاب يحافظـون عليهـا ويتباهـون في صراحتهـا والتحامهـا بخـلاف أهـل البـداوة في بلادنـا فـإن لحمـة النسـب أقـرب فيهـم وأشـدّ ارتباطـاً بينهـم ومحافظتهـم عليهـا هـي التـي نزعـت بهـم إلى سـكنى البـدو والتجـافي عـن المـصر وهـم أعـرق فيـه مـن هـؤلاء.

م م: ربمـا كان ذلـك ولكـن مـا تقـول عـن اسـتوائهم في كسـب المعيشـة أم أنهـم يتبعـون في ارتيادهـا مصـدراً واحـداً ويـردون في طلبهـا مـورداً واحـداً فهـذه تواريـخ أهـل البـدو العـربي وتـلاك دواوينهـم التـي إذا مـا تصفَّحتهـا ووقفـت عـلى أسرارهـا أنبأتـك ولا ريـب بصريـح العبـارة أنهـم كانـوا جميعهـم رُمـاة قـسي وأربـاب كنائـن ومُنَصّـلي أقـداح وأنهـم لتفرّدهـم عـن المجتمـع وتوحشّـهم في الضواحـي وبعدهـم عـن الحاميـة قائمـون بالمدافعـة عـن أنفسـهم لا يكلونهـا إلى سـواهم ولا يثقـون فيهـا بغيرهـم فهـم لذلـك يحملـون السـلاح دائمـاً ومـا شـأنهم إلا شـن الغـارات عـلى الأعـداء وغزوهـم. وهـذه الامـم الوحشـية الآويـة كـما تراهـا إلى النـيران والكهـوف مـا مثلهـا إلا مثـل أهـل البادية عندنـا فإنمـا أقواتهـم تجـري عليهـم بمـا يتصيـدون في جعبهـم وشـباكهم مـن القنـص والصيـد ولا ينتحلـون في معاشـهم غـير الغـزو والحمـل عـلى الأعـداء والقيـام عـلى الحيـوان مـن الغنـم والبقـر والمعـز الـخ. وقـد أوغلـوا في هـذه القفـار نفـرة فكانـوا لذلـك أشـدّ النـاس توحشـاً وقـد نزلـوا مـن أهـل الحـواضر منزلـة الوحـش غـير المقـدور عليـه.

مـص: قـد فاتـك أيتهـا الحليلـة أن العـرب في بلادنـا أبعـد نجعـة وأشـد بـداوة لأنهـم مختصـون بالقيـام عـلى الأنعـام فقـط وهـؤلاء يقومـون عليهـا وعـلى غيرهـا أولئـك قـد تفـرّدوا في القفـر والبيـداء ليُدلـوا ببأسـهم واثقـين

بأنفسهم وقد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجيّة يرجعون إليها متى دعاهم داع واستصرخهم صارخ. وهؤلاء إنما يسكنون المدر والجبال فراراً من الحضر وهم إذا شُرع عليهم رمحٌ فرّوا مدبرين أو طُلبوا للنزال تراجعوا منخذلين وإذا استنصرخوا خذلوا أو تداعت الفوارس تزلزلت أقدامهم وقعدوا عن الهيجاء جبانة ووَهلاً أولئك أقوى الناس هماً وأشدّهم أحلاماً وأعزّهم جاراً وأحماهم ذماراً. وهؤلاء أوهن القوم ساعداً وأوفرهم نقماً وأضرّهم سكناً وأهتكهم عرضاً.

م م: لقد جزُل أيّها الحبيب منطقك وبلغ معناك وفصح تعبيرك ومتن برهانك فما كان ضرّك لو تجافيت عن شطط المبالغة حتى لقد حملك إفراط نزوعك العرب والعربية إلى الغلوّ الفاحش متجاوزاً الحقيقة إذا لم أقل أن ادعائك ليس بأمرٍ واقعي فقل لي يا رعاك الله إلى أي الأغراض ترمي وما الذي تعنيهِ في كلامك؟

مص: إن ما بدر إليك من الكلام البديهي الذي لعلك أوردته من غير ما تروٍّ لم يصب حكماً صائباً إذ حاولت به أن تنفي عن بني جلدتك ما هو مثبت لهم وحدهم دون سواهم فما من أحد يجهل ما فُطرت عليه العرب أهل الوبر من سمو الأخطار ونبل الهمم والأقدار وشدة الأنيقة والحميّة من المهرة والعار فهم في باديتهم أشرف وأعزّ من هؤلاء البرابرة الأعاجم في سكناهم هذه الجبال الوحشية وتجافيهم عن الأمصار وسكانها فهذا هو غرضي ومقصدي وهو جليٌّ واضح لكل ذي عينين.

م م: رويدك يا صاح فإن الأوروبيين قد توصّلوا بمشهور تمدّنهم إلى

استجلاب هذه القبائل المتوحشة إلى الأقاليم الموات الماحلة ذات الجبال الحجرة وجمع معظمهم فيها وضم شتاتها بحيث توفقوا إلى أن اشترعوا لهم ١٨٣٠ سنّة يجرون عليها حتى كانت لهم رابطاً يربطهم ببعضهم وذريعةً إلى تأليف تسعين حامية بينهم وهي التي عُرفت بالإقطاعة الهندية ناهيك عمّا أدخلوه بينهم من مبادئ التهذيب وقواعد الآداب.

مص: أجل إني لست أنكر ذلك ولكن فاتك أن تعلمي أنه لم يتثقّف منهم إلا بعض قبائل استعملت الفلح من الغراسة والزراعة وانتحلت القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز وسائر الحيوانات الداجنة كعشائر الكيراكيين (Chirokis) والشايانيين (Cheyennes) والشيقاسيين (Chikasas) والكاكتاسيين (Chactas) اما القسم الأكبر منهم فلم يأخذ عن الأوروبيين إلا عوائد الشر والسوء ولذلك فان ما كان منطبعاً في أنفس هؤلاء من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وتفاقم قبحها قد رسخ فيها لدى الفتح الأوروبي كل الرسوخ فأمسى علاجهم متعذراً إذا لم أقل مستحيلاً. أما أهل البدو عندنا فإني أوافقك على وجود شيء من مذاهب السوء ومذمومات الخلق فيهم لكنه بالنسبة إلى ما عند هؤلاء البربر منها يكاد لا يذكر ولهذا فإنا نجد التمدّن غاية للبدوي في بلادنا يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها وها أنّ دولتنا الأبدية القرار قد وجهت مساعيها إلى البادية في القارة العربية وصرفت نحوها عنايتها فطفقت تنشر رايات العمران والتمدن بين ظهراني سكانها فسنّت لهم الشرائع وأقامت الحاميات لحراستها ومناصرتها ومظاهرتها على تدبير شؤونها حتى إن ما كان لهم من سورة البأس والاستقلال قرّت فورتهُ إذ خدّشته أظفار التأديب والحكم فانقادوا إلى

الآداب والسـنن راضـين فعـمّ الأمـن وسـادت الراحـة والسـكينة وهـا هـي اليـوم تنفيـذاً لمقاصدهـا السـنية وإدراكاً لأمانيهـا مـن بـث روح المدنيّـة فيهـا جـادّة في فتـح سـكة حديديـة مـدت أسـلاكها في قسـم معتـبر منهـا وهـي المشـهورة بالسـكة الحجازيـة وبـإذن اللـه لا تـكاد تمـضي علينـا مـدّة حتـى نسـمع مـا يـسر كل عـربي ويرتـاح إليـه كل وطنـي مـن نجـاز تلـك السـكة في القريـب العاجـل في ظـل مليكنـا ومتبوعنـا الأعظـم «عبـد الحميـد خـان» أيّـد اللـه سريـر سـلطنته بالعـز والنـصر والاقبـال وأنجـح كل مسـاعيه الفريـدة الآئلـة إلى خـير السـلطنة وفـلاح البـلاد. فهمـت مريـم بالجـواب ولكـن حـال دون مرادهـا وصولهـا إلى مدينـة كاليفورنيـا التـي اغترقـت أبصارهـا واسـتوقفت أفكارهـا فشـغلتها عـن مواصلـة حديثهـا.

الفصل السّادس عشر

في مدينة كاليفورنيا وسفرها منها إلى نيويورك

•••

إن وصولهما إلى مدينة كاليفورنيا كان سبباً لقطع محاورتهما وقد ظهرت لهما أنها من أعظم مدن الاقطاعة الباسيفيكية إلى الجنوب فيا ما أرقّ أديم سمائها وأشرق اعتدال مناخها وأندر جودة هوائها فأرضها غنية في الحقول والزروع والكروم والأجفان أما طبقات جوفها فخالية من كل أنواع المعادن والاستعمار في ضواحيها أخذ ينمو متقدماً منذ امتداد السكك الحديدية فيها فحلها المنصوران على الرّحب والسعة وشرعا يجوبان في أفاقها ويتفقدان معاهدها ويتنزّهان في رياضها فكانت نزهة لأعينهما ولهواً لنفوسهما فأقاما فيها حيناً ثم قفلا راجعين إلى شيكاغو التي طابت لهما الاقامة في ربوعها كما أسلفنا إلا أنهما رغبة في انجاز سياحتهما اضطرا إلى الانتزاح عنها فهجراها وفي النفوس منها ما فيها.. فقصدا نيويورك التي وصلاها في أواخر سنة ١٨٨٤ وهي من المدن الساحلية لها شأن كبير بالنظر إلى مرزها ومرساها الذي تنقل من واليه البضائع من كل الأنحاء وهو من أعظم المراسي وأقدمها في تلك القارة الجديدة وقد جاء وصلة الاتحاد بين الأوروبيين والأمريكيين وفيها وفي ضواحيها القديمة من السكان ثلاثة ملايين وكلها الآن عبارة عن مدينة واحدة فأقاما فيها شهراً وقَفاهُ على زيارتها والتفرّج عليها فجالا فيها يُسرِّحان اللحاظ بعمارها وقصورها وحصونها ومعاقلها وجناتها وفراديسها وكنائسها ومعابدها فإذا هي من الخصب وسعة الأرزاق وكثرة المرافق وفنون المحاسن وبراعة المناظر وعجب

المطالع بمكانة جليلة فريدة تعجز الوصف ولما كانت نيويورك فرضة في الولايات المتحدة ومن أعظم موانيها رأي منصور أن يفكِّهَ مريم بطرفة من تاريخها الجغرافي فقال رعاه الله: لا حاجة إلى أن أبيّن لك مواقع هذه الولايات المتحدة وإنك تعلمين أن ولايات كندا تحدّها شمالاً والاوقيانس الاتلنتيكي شرقاً والمكسيك وخليجه المشهور باسمه جنوباً والاوقيانس الباسيفيكي غرباً وإنما غرضي أن أوقفك على حالة البلاد ففي القرن السابع عشر أخذ في إنشاء المستعمرات الأوروبية فيها فهاجر إليها على التوالي الانكليز ثم الهلنديون ثم السويسريون فالاسبانيون فالافرنسيون وأقاموا فيها طوارئ، وجاليات فشرعت المستعمرات الانكليزية تمدّ سيطرتها ونفوذها في أكثر البلاد لكنها لم تلبث أن نُزعت منها سنة ١٧٧٦ ومع ذلك ما برحت تجدّ في توسيع نطاق ملكها بالفتوحات الجمَّة التي أحرزتها فيها حتى تغلَّبت على لويسيانا ١٨٠٣ وفلاريد ١٨٢١ ونزعت من أيدي المكسيكيين في حرب الـ ١٨٤٦ – ١٨٤٧ تاكزاس والمكسيك الحديثة وأريزونا وكاليفورنيا فخفق على جميعها العلم الانكليزي.

م م: أراك تذكر لي ما لم يقع في الحسبان فإني لا أزال أنتظر منك الكلام عن حالتها الحاضرة ومقامها الدولي فدعنا من ذكر الأوروبيين الذين اكتشفوها واحتلوها وانتشروا في أنحائها فذلك مما يعلمه كل من له إلمام في التاريخ.

مص: عفواً مولاتي فإني كنت أخالك تجهلينها ولا أراني قد اقترفت كبيرة بترداد مثل تلك الأمور على مسامعك وفي الإعادة افادة والآن إذ

نوَّهت بغرضك فلا بأس من مجاراتاك فاعلمي أن في الولايات المتحدة جمهورية مستقلة تتألف من ٢٤ ولاية أولها الاقليم الاتحادي حيث بنيت العاصمة واشنطن وأربعة أقاليم منتظمة بمعزل عن ولاية الألسكا والاقطاعة الهندية فلكل من هذه الولايات نظام سياسي تجري على سننه ومحكَمة مؤلفة من مجلسي الشيوخ والنّواب والسلطة على إدارة هذه الجمهورية مرجعها إلى ثلاثة: الرئيس المنتخب إلى أربع سنين وبه منوط تنفيذ الأحكام. والمشترعون وهم أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب. والقضاة وإليهم مرافعة الدعاوي يميزون بين صدقها وبطلانها وينصفون الظالم من المظلوم.

أما عن انتشار هذه الولايات ونموّها فحدث ولا حرج فهي مع أنها ابنة اليوم بالنسبة إلى سائر قارات العالم قد رقيت منصة قصوى في التقدم والفلاح حتى بلغت خطوط سككها الحديدية ٢٨٨ ألف كيلومتر وهو عدد لم تبلغه بل لم تقاربه أوروبا بأسرها على اختلاف ممالكها. لا أذكر الاسلاك التلغرافية والتلفونية وهي على غاية الدقة والاتقان. اضرب صفحاً على تعدّد شركات البواخر فيها وهي لا تقل عن الاثنتي عشرة شركة تجعلها تنقل مواصلاتها كل يوم إلى أوروبا وسائر جهات العالم وأصبحت هذه الولايات في عهد قصير من أهم مدن العالم في صادرات القطن واللحوم والحبوب. أجل إن الصناعة فيها كانت لم تزل في حد أوسط إلى نحو سنة ١٨٥٠ لكن ما لبث أن بان شأوها وازدهارها فأصبحت ولها المقام الثاني بين دول العالم الصناعية. وتجارتها الخارجية تربى اليوم على ٩ مليارادات من الفرنكات فالولايات المتحدة قد

ضاهت أوروبا في عظمتها وحضارتها وتوفر ثروتها حتى عدت من أعظم ملاك العالم.

لم يكن اعجاب مريم بما عاينت في هذه المدينة من مشاهد تروق الأبصار بحسن منظرها البادع وشأنها البديع أقل منه بوصف منصورها لما كانت ترغب سماعه وتود بيانه ثم قالت له إنك قد استهللت كلامك بدخول الأوروبيين إلى الديار الأمريكية واستمرارهم فيها وخصصت الانكليز بالانفراد عن مواقف أشباههم والإرباء على أكفائهم في مد سيطرتهم بالبلاد وتوطيد سيادتهم على معظمها أفلعلك جنحت هذه المرة أيضاً إلى الافراط والمبالغة متعصباً لأناس دون سواهم.

مص: لا لعمري فإني لست من الإفراط والتعصب على شيء بل كل ما روته لك أمر واقعي ترينه إذا استقصيت في البحث والمطالعة مسطراً على صفحات التواريخ.

م م: إذا كان الانكليز من الشهرة والنفوذ والسطوة بحيث وصفت فلنرحلن ّإذن على المنشط إلى بلادهم البحرية فأدرس فيها أطوارهم ويحقق لي الخبر الخُبُر.

الفصل السَّابع عشر
في سفرهما إلى إنكلترا وعودتها إلى الوطن

•••

ارتحل القرينان عن نيويورك في أوائل تشرين الأول سنة ١٨٨٥ فاقلما منها في سفينة انكليزية قاصدين قاعدة

بريطانية العظمى فلما تلجّجت وجعلت تشقّ عباب اليم المتموّج طفقت مريم تُخطر على بالها قول المرتل في زبوره (مز: ٩٢) رفعت الجار يا رب صوتها رفعت عجيجها ما أعظم صوت المياه الغزيرة طغيان أمواج البحر بل ما أعظم الرب في العلى. وما برحت تردد هذه الآيات الشريفة وأمثالها على مسمع منصورها وهي تستعظم أعمال الله العجيبة من صنعه البحر وجبل يديه لليبس حتى رست فيها الباخرة في فرضة سوهانتسون التي صرفا فيها أسبوعاً استئنافاً لنشاطها وجلاء لصدأ العناء عنهما حتى إذا انقضت المدة المضروبة ر كبا القطار ووجهتهما لندن مركز الحضارة والعمران وعروس المدائن وعاصمة تلك الجزيرة العظيمة انكلترا المشتملة على أقاليم كثيرة والبحر يستدير بها شرقاً مع الناحية الشمالية ذاهباً مع الناحية الشرقية إلى الجنوب وينتهي قريباً من الناحية الجنوبية والجزيرة داخلة بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وانفساح بسيطتها يبلغ ٣١٤ ألف كيلومتر مربع باعتبار كل المملكة المؤلفة من بريطانية العظمى وإيرلندة فلما وطئا أرضها وجالا فيها جولة المتبصر في تربتها وموقعها والمعجب بمناخها ومنظرها والعاجم عود أهلها وما

هـم عليـه مـن الأخـلاق والأطـوار التفتـت مريـم إلى منصـور وقالـت لـه إنـك لمّـا كنـا في أمركـة بالغـت في إطـراء الانكليـز ونفـوذ شـوكتهم فهـل لـك أن تلخّـص لي مجمـل أحوالهـم وموقـع بلادهـم.

مـص: إن موقـع انكلـترا الجَـزري هـو الـذي أجداهـا مقامـاً رفيعـاً في القـارة الأوروبيـة فهـو الـذي أمنهـا وأعاذهـا ووقاهـا آفـات الغـزوات وغوائـل الغـارات التـي تتابعـت بـصروف الزمـان وحـوادث الأيـام عـلى المـدن غـير الساحلية ويـسر لهـا أن تحفـظ اسـتقلالها مـن غـير منازعـة ولا خـلاف وأن تتيـه دلالاً بسـلطتها الملكيـة فـما يحشـده غيرهـا مـن الـدول مـن الجنـد ومعـدّات الدفـاع ويبذلـه في سـبيل حمايـة تخومـه والـذب عـن حيـاض بـلاده تنفقـه هـي في وجـه تقدّمهـا وانتشـار صولتهـا ومـدّ أروقـة سـيطرتها فأصبحـت عـلى هـذا المنـوال بـلاد الحريـة المطبقـة عـلى قوانـين المملكـة وأول دولـة صناعيـة تجاريـة واسـتعمارية في أوروبـا بأسرهـا. وفي الأجيـال المتوسـطة طمحـت نفسـها إلى تسـوّر شرفـات النجـاح فلـم تفلـح بـل خسرت جنودهـا ولانـت شـوكتها لمّـا حاولـت اخضـاع فرنسـا لسـيادتها الإداريـة وتمكّنـت في ردغـة الانكسـار والهـوان لكـن مـا كادت الحـروب الوطنيـة التـي نشـبت في القـرن الخامـس عـشر تضـع أوزارهـا حتـى وثبـت إلى قمـة النجـاح والاشـتهار وبلغـت بعـد اكتشـاف امركـة إلى رفعـة لا تُسـامى فطـار في الجيـل السـادس عـشر صيـت صنائعهـا وتوفـرت في القـرن السـابع عـشر في أيـام الملكـة اليصابـات وكرومفـال (Crom well) مراكبهـا التجاريـة وتعـززت قوتهـا البحريـة ومنـذ ذلـك الحـين لا سـيما في الجيـل الثامـن عـشر أخـذت تعنـى بمـد مسـتعمراتها حتـى ألفـت منهـا مملكـة اسـتعمارية

سواها وهي جصية كاسبة ذات طباشير (حوّاري) وصلصال وتراب من فخار وكلها مما يُناسب زراعة الأرض واستثمارها غاية المناسبة.

م م: قد فهمت ذلك ولكن كيف يسكنها أهلها وهي لا تزال مغشاة بظلام قاتم بسبب ما ينتشر فوقها من السحب المتلبّدة والغيوم المتكاثفة والضباب الحالكة؟

مص: لمّا كان مناخها بالطبع ساحلياً وكانت متوسطة للمياه الغامرة ومهيا لأرياح البحر الأتلنتيكي كان لا بدّ من حدوث هذه الحالة فيها فإن الأرباح البحرية كما تعلمين تعدّل الجو وهواءه وتحركه كأنها تخضخضه وتنعشه فتهطل الأمطار الغزيرة ويحدث في الجوّ كما تشاهدين من انتشار السحب والضباب وانعقاد تلك الأبخرة التي لا تلبث أن تتحدر على الأرض فترويها بهُتنها الهطل أمّا سكانها فقد ألفوا هذه الحالة فهم يرتاحون ولا مرية إليها بل إنهم لدى تسريجهم الأبصار في أراضيها المستمرة نضارتها يحمدون عقباها وعليه فلا تزين في كل أرجائها سوى امتداد بسائط خضراء ومروج فيحاء ذات مراع طيبة وأرياف خصة. وقصارى القول إنك تشاهدين فيافي البلاد الانكليزية وقفارها وبواديها جميعها مفروشة ببساط أخضر من نبات مروي بالماء زاهر زاهٍ ولذلك فإن أهليها لا يسأمون كثرة السحب والأمطار لوفرة مفاعيلها فهم لذلك أهل اعتدال في خلقهم وخُلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار موفّرة لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والملك إلا أنهم من الرفاهة والترف بحيث أخصبوا فيه وانغمسوا في طيّباته.

م م: كأني بك في وصفك الجزيرة الانكليزية انكليزي قحّ خبر فيها البلاد والعباد ووقف على أحوالهم وأطوارهم وعليه فلا بأس إذا استخبرتك عن حقيقة طباعهم ولغتهم وآدابهم.

مص: أمّا لغتهم فهي كما لا يخفى الانكليزية التي هي عبارة عن لهجة قوية وجيزة حمسة بسيطة أما نظراً إلى تركيبهم الطبيعي فهم أبطال صناديد سُقفٌ دمويون ذوو سواعد ملآنة وقضُب ريّانة أمّا من جهة آدابهم فلأن تملك فيهم الصفات الحماسيّة بالأولى من الأخلاق الرقيقة وهم ذوو ثباتٍ ورباطة جأش ورسوخ وطأة ورجحان تؤدة فما من أحد يتقدمهم في ابتكار الاختراعات وابتداء الاستنباطات فضلاً عن أنهم يقدمون على المشاريع الخطيرة بنشاط يُرهف طبعهم وأربحيّة تصقل أذهانهم لأن قلوبهم قد أشربت حب النجاح والفلاح لكنهم يؤثرون خلافاً للافرنسيين خيرهم الشخصي على الخير العام.

م م: قد فقهت ذلك ولكن بأي دين يدينون؟

مص: إن النصرانية دينهم ولكن القسم الأكبر منهم انكليكانيون ولم يكن عدد الكاثوليك بينهم يتخطى المليون أما الآن فقد أَربي عددهم على عشرة ملايين ونصف في بريطانية العظمى وإيرلندة.

م م: أراك أتيت على وصف البلاد الانكليزية دون أن تصرّح أو تلوّح بذكر شيء من أحوال عاصتها الشهيرة التي احتللنا ربوعها ولا نزال ضاربين خيام الاقامة في فناء أحيائها.

مص: ليس ما هو أسهل من ذلك فإن لندرا قاعدة ملكها هي من أقدم ما عُمر فيها من المدن ومن المرجّح أنها في أوائل العهد التاريخي

أُهلت نظير سواها من البلاد الانكليزية بالشالتيين (عبارة عن قبائل يتسلسلون من ذرية قوقاسيّة قد انتشروا في فرنسا واسبانيا وبريطانية العظمى وايطاليا الشمالية) ثم انتحاها الرومان فأقاموا فيها قرنين فعقب هؤلاء على التوالي الألمان ثم الكندينافيون (Scandinaves) (هم شعوب أوروبيون ينتسبون إلى الأصل الجرماني ويلغون زهاء تسعة ملايين منهم ٥ ملايين سويسريون ومليونان وخمسون ألفاً دنمركيون ومليون و٨٦٠ نروجيون و٩٠ ألفاً نرمنيّون) الذين إنما دلفوا إليها ليغزوها حتى تهيأ لهم ان يحكموا فيها مع كانوتس الثاني الكبير (هو ملك الدنمارك وانكلترا قد افتح نزوج فلقّب بالكبير وقد ملك من ١٠١٥ إلى ١٠٣٦) ثم احتلها النرمنديون (عبارة عن شعوب نزحت من اسكندينافيا في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر فأخذت تشنّ الغارات المتواصلة على كل من انكلترا وفرنسا وايطاليا فدوّختها وتسلّمت ذمام أمرتها. فالنرمنيّون الافرنسيّون منهم هم الذين فتحوا انكلترا واحتلوها ١٠٦٦) ثم الأفرنسيون على عهد غوليامس الأول الغازي بن روبرتس العظيم دوق نرمنديا وهو الذي استولى على انكلترا فاشترع فيها السنن التي ضمنت الراحة ووطدت الأمان في أيامه وأيام خلفائه فيها من ١٠٢٧ إلى ١٠٨٧.

فهذه العاصمة الانكليزية واقعة على مرفض وادي تميز (اسم نهر) اخصب محلّ في انكلترا وعلى ضفة نهرٍ بحري يصبّ تلقاء أَخوار أنهر أوروبا المتوسطة وقد كان لها على توالي القرون قوة منيعة ونفوذ راجح في جميع البلاد الانكليزية إذ لم تطرأ قطّ عليها من الثورات العصرية بالنظر إلى إدارتها وسياستها وهي مدينة واسعة المرافق كثيرة

العمارة والخصب وفي جميع منازلها الكُوى والدواخن لقلة ضوئها وتكاثف ظلالها وتُعدّ أول حاضرة للتجارة في بريطانية العظمى والعالم بأسره ولها المقام الأول بين عواصم الدنيا بمتاجر أسواقها النافقة الحفيلة وتفردها بأنواع الشاي والقهوة وهي من أعجب البلاد في الخصب وسعة الخيرات ووفرة الغلال والسلع والحاصلات وسكانها يربون على ٤,٤٢١,٠٠٠ وبمعزل عن النازلين في ضواحيها الذين لا يقلون عن المليونين فكانت لذلك أحفل بلاد الله وأوفرها ثروة وغنى وأرجحها شوكة ونفوذاً.

أما مريم فإنها رغماً عن هزّة فؤادها وارتياحها لوصف عاصمة البلاد الانكليزية الذي أقبلت على تلقيه من منصورها بانبساط ولذة قد تبرّمت بتلك القاعدة وكاد يُغشى عليها من معاينتها إياها مؤتزرة بالسحب ومعتمة بالضباب كل مدّة إقامتها كما سبق لنا الكلام فالتمست لذلك من قرينها أن تعود إلى الوطن قبل انجاز سياحتها إطلاقاً لنفسها من عقال السأم واستئنافاً لنشاطها الكليل فرأى منصور أن يجيب ملتمسها الذي تعوّد أن يرتفع له حجاب سمعه فرحلا عنها لشهر قضياه فيها وانطلقا منها إلى سوهنتسون ومنها أبحرا إلى الهفر ذات المرسى العظيم وهي مدينة حديثة العهد اختطّ أسُسها فرنسيس الأول ولقبّها باسمه «مدينة فرنسيس» وغرضه منها أن تسدّ مسد سائر مرافئ السان التي سدها ما تنشّب فيها من الرمال على توالي الأيام فما لبث أن ذاع صيتها وانبسط نفوذها حتى شوهد في غريب تقدمها ما يوقع الدهش والعجب فأصبحت ولها المقام الثاني بعد مرسى مرسيليا ثم شخصا منها إلى مرسيليا فركبا فيها باخرة الفرنسية

وأقلتهـما إلى طرابلـس الشـام حيـث كان في انتظارهـما جمهـور الملاقـين مـن أصحـاب ومعـارف وأهلـين فانشرحـت صـدور الصـدور برؤيتهـا وظهـرت أسرار الـسرور بطلعتهـما وهبّـت نسـمات قبـول الفـرح لـدن تجاذبـا أطـراف الحديـث مـع الأحبـاب والخـلان فصرفـا نحـو الشـهرين في الأحجـار الوالديـة والربـوع الوطنيـة موفـرة لهـما بهـا دواعـي الهنـاء والراحـة تحـت سـماء لبنـان الـكاسرة جيـوش الغمـوم والهازمـة أحـزاب الأكـدار والهمـوم:

حتـى العناقُ عنيقاً صبحَ يوم لِقَا

مـن الأحبـة حتـى عـاد مخمـوراً

وراحهُ اللثمُ والترشـافُ من قُبَلِ

ريقيّة فارتوى الحرّانُ مسـعوراً

يـاهنـأاللـه ذاك العـودُعـادبـه

شـملُ السرور وولّى الغمّ مذعوراً

فاستأنسـت فيه دور المجد زاهيةً

وقـد تجـلّى بهـا المنصـورُ مـسروراً

لا زال نجمُ الهنا والسـعدِ قائدهُ

في الحـلّ فيهـا وفي الترحـالِ منصـوراً

الفصل الثَّامن عشر
في سفرهما إلى الإسكندرية

•••

كانـت الأطيـار مطربـة بنشيشـها رافلـةً في الملابـس المجـدّدة في ريشـها والنـاس يعتضـدون بالـبرود والفِـرا ويستمسـكون مـن الدثـار بأوثـق العُـرى لمَّـا دنـا ميقـات الفـراق وصـارت المدامـع كالـدرّ بالوجنتـين في اسـتباق:

دعَتِ النَّوى بفراقهم فتشـتّتوا

وقـضى الزمـان بينهـم فتبـدّدوا

أبقيتـما يا راحلين بقيّةً

مـن مهجـةٍ لمتيّـمٍ لا تُحمـدِ

كيـف التخلُّص من بلابلِ بالها

وجنانُ ليلِ البعِد داجٍ أسـودُ

والوصـلُ ممتنعٌ ويومُ لقائهم

عَسـيرٌ وليس لملتقاهم مَوعدُ

في أواخـر الخريـف مـن سـنة ١٨٨٥ ذكّـرت مريـم منصورهـا بمـا كان قـد وعدهـا بـه مـن إنجـاز رحلتهـما وتعجيـل أوبتهـا إلى مدينـة شـيكاغو التـي راقهـا منظرهـا وآثرهـا عـلى سـواها مُقامـاً فأجابهـا منصـور:

مـص: أمـا يَهُولـك مشـهد الفـراق وقـد قيـل أن بفـراق الأحبـاب سـقام

الألباب وهلّا يروعكِ السفر وقد أشعرتِ من الرحيل بألم ومن البين بحرقة.

م م: جزى الله الفراق خيراً فهو وإن يكن فيه وحشة وغمّة فإنها تُخفّف ولا شك بتأميل الرُجعى والأوبة والقلب إنما عمارته كما لا يخفى بالشوق والأنس يُدرك بالمكاتبة وإن هما إلا من معلولات الفراق الذي يُخبّل لي والحالة هذه قصيراً ولله درُّ البحتري حيث قال:

ولقد تأمّلت الفراق فلم أجدْ

يومَ الفراق على امرٍ بطويل

قَصُرت مسافته على متزوّدٍ

منهُ لرهن صبابةٍ وغليلْ

فهيا بنا إذن إلى امتطاء غارب الغربة فقيها درة لكل غمّ وكرية فودَّها الأهل والخلان وشيّعتهما القلوب والمهج فسارا وه بريدان الاسكندرية والتوفيق قائدهما ومطلع السعد والاقبال رائدهما فرست فيهما الباخرة الخديوية في ميناء الإسكندرية ذات المرسى العجيب للمراكب الواردة إلى القطر المصري وسوريا والمقلعة منها إلى كل بلدٍ وهي مدينة حريزة في أمنٍ من الطوارئ لأنها على المصبِّ الغربيّ من شعب النيل ويحيط بها من ناحية الشرق سيلٌ ساحلي وقد تقلّبت في أطوار مختلفة أدارت عليها الدوائر فأدركها الهرم في حضارتها والانتقاص في أهليها حتى أمسى مرجعهم في أوائل الجيل المنقضي إلى ٧ آلاف أما الآن فقد عادت إلى قديم ازدهارها وسالف بهاها حتى بلغ عدد سكانها

٥٠٠ ألف ومما زادها عمارة ونجاحا فتح ترعة السويس فدخلا تلك المدينة الزاهرة الجليلة المركز وأخذت مريم إذ ذاك تطارح منصور الأسئلة المختلفة عن النيل ومصدره وعن تاريخ القطر المصري وسكانه وتجارته وغير ذلك مما لذّ لها الوقوف عليه وكان منصور يجيبها على كل سؤال بعبارته الفصيحة واصفاً أحوال البلاد وأطوارها بما عهد به من التضلع والوقوف على أسرار التاريخ والجغرافية إلى أن شرع يحدثها عن النيل حيث قال:

مص: إن مخرجه من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة فيخرج من هذا الجبل عَشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبنها ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ويقدم ماؤها بقسمين في الغربي منه إلى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهبًا إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة (Nubie) وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ويص واحد في بحيرة ملحة قبل أن تصل بالبحر وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدها جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عالٍ من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوىً بعيد صباً هائلاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيُحمل على الظهر

إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد إلى فوق الجنادل وبلاد الحبشة على وادٍ يأتي من وراء خطّ الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط إلى مصر.

فبعد أن فرغ من وصف النيل تخلّص إلى وصف الأنحاء المصرية فأعجبت مريم ببعضها ولم تستحسن بعضها فحاول منصور ان يتبيّن منها مواطن الخلل في كلامه فلم يسمع منها إلا همساً وكأنها عنت بذلك استرعاء إصغائه إلى حديثها فقالت:

م م: ان الحياة النباتيّة في القطر المصري ينحصر مصدرها بوادي النيل البالغ طولهُ على التقريب ١,٦٠٠ كيلومتر فشجر ليمونه الغِضر المتكاثف فيه من الأخلاط الحارّة والأحداث الحامية ما ينوب مناب السماد ومياه نهره تسدّ مسدّ الرطوبة التي تبخل عليه بها السماء وأشعة شمس مؤثرة شديدة الحرارة ولأجل ذلك فقد أخصبت منابته واتجر المصريون معه وهم في غضراء من العيش وسعة من الخير والخصب فلدي نقصان النيل غرس أراضيه بغراس مختلفة من مثل الكتان والترمس والباقلاء المصرية والنفل الأبيض النَّور والحلبة وهلم جراً ففي تشرين الآخر يزرع القمح والفول والثوم ولا تلبث تلك البذور أن تنبت وتطلع سريعاً لخصب التربة التي لا تكاد مياه النيل تنكشف عنها بنقصانه حتى يغطّيها كساءٌ من نبات أخضر فالزروع في القطر المصري تُحصد بعد مئة يوم من بذرها إلا الأرز فإنه يحين حصاده بعد سبعين يوماً والقطن المزروع في نيسان يلبّبُ في آب ويجنى في كانون الأول في الأرض البارزة غير المغمورة. أما القطن وقصب السكر

فقد أدخلا حديثاً إلى القطر المصري وإقبال موسمهما فيه مما لا يحيط به الوصف فينتج من كل ما ذكرت أن الزراعة إنما هي موسم البلاد المصرية ومصدر ثروتها لأن ليس في تربتها مناجم تعدّن وجلّ ما بها بعض صفائح من الرخام الأبيض وحجارة سماقيّة وهي من آثار مصر العليا العجيبة الشأن كممفيس ودندرة ولوكسار.

مص: إني لم أكن لأفقه إنك تريدين وصف وادي النيل بخصبه وجودة تربته ونماء الزراعة فيه فالآن إذ قد أتاك الكلام وتابعك فأتحفيني بلمحة من تاريخ البلاد المصرية وأنا لك من الشاكرين.

م م: إن القطر المصري كان على ما أعلم منذ القديم زاهرا وأنه كان قبل التاريخ المسيحي بألوف من القرون قاعدة التمدّن والحضارة ويشهد بذلك ما تراه شاخصاً أمامك من الآثار والأطلال كأهرام الجيزة بالقرب من القاهرة ومسلات قرنة ولوكسار وعدد وافر من الهياكل والمدافن والكتابات المسمارية التي اكتشفها الأثريون الافرنسيون شمبليون (Champollion) وماريات (Mariette) ومسبار (Maspero) فوقع اكتشافهم ذاك موقعاً جليلاً في نفوس العلم والعلماء بارتفاع شأنه وعظم قدره. فلا ريب والحالة ما ذُكر بأن مصر كانت في تلك الحقبة تمدّ في وجوه الفلاح والازدهار غُرراً اغترقت الأبصار واستوقفت الأفكار ثم إنها تقلّبت في أطوار مختلفة واضطرب عليها الملك مرة بعد أخرى إذ لم يكن لها سلطان موطّد على توالي الأيام لأن الحكم فيها قد تداولتهُ تباعاً اليونان فالرومان فالعرب فالأتراك ثم دولتنا العثمانية الأبدية القرار وبعد أن استفحل أمر سنائها وحصل لها من

الاعتـزاز والشـوكة مـا حصـل أخـذ ينتابهـا الـذل والتقهقـر أعوامـاً طـوالاً إلى أن تقلّـص ظـلّ مجدهـا وانحـسر تيّـار قعسـها وأخـذت مأخذهـا مـن الهـرم والانتقـاص في أوائـل القـرن التاسـع عـشر... أمـا اليـوم فقـد ارتفعـت منزلـة مـصر وجـلّ شـأنها وأقامـت تحـت رواق عزّهـا القديـم وظـلال فخرهـا النـار حتـى أصبحـت وهـي بـلاد مسـتقلّة يحكمهـا نـوّاب السـلطان أو سـفراء البـاب العـالي المعـروف كلّ منهـم بخديـوي مـصر وقـد انبسـطت آمالهـا وانتشـطت للعمـران وأسـبابه في عهـد خديوييهـا محمـد عـلي (١٨٠٥-١٨٤٨) واسـماعيل باشـا (١٨٦٣-١٨٧٩) اللذيـن زادا في تعزيزهـا وبسـط سـيطرتها فـالأول منهـما تغلّـب عـلى النوبـة وغردفـان (١٨٢١-٢٣) والآخـر اسـماعيل احتـلّ دارفـور ودار فرنيـت واقليـم خـط الاسـتواء (١٨٧٠-٧٥) لكنهـا جميعهـا قـد نزعـت مـن أيـدي المصريـين منـذ تنصـب مدحـت باشـا. ومـما وفـر العمـران لمـصر بوجـه أخـص أهميـة مركزهـا الواقـع عـلى طريـق الهنـد والـشرق الأقـصى ناهيـك عـما كان لفتـح ترعـة السـويس مـن العواقـب المرجـوة التـي عـادت عليهـا بالفوائـد الغزيـرة.

مـص: فـين أقـدم عـلى هـذا المـشروع الخطـير الـذي سـاق بـه المجتمـع الانسـاني خـيراً منجبسـاً لا يدركـه انتقـاص أو نضـوب.

م م: هـو ذلـك السّـامي المـدار الافرنـسي لاسـبس (Lesseps) الـذي أقـرّ العـالم بفضلـه فإنـه قـد شرع بالعمـل في فتـح تلـك الترعـة ١٨٥٩ وفـرغ منهـا ١٨٦٩ فجـاء طولهـا ١٦٠ كيلومـتراً وعرضهـا عـلى سـطح الميـاه مئـة مـتر و٢٢ مـتراً في قعرهـا وعمقهـا ٨ أمتـار وغـدت أرحـب سـبيل للتجـارة بـين آسـيا أوروبـا. فأصبحـت مـصر منـذ حينئـذ مطمحـاً للرغائـب والأمـاني.

ففي سنة ١٨٧٩ اضطرّت العراقيل المالية التي أصابت مصر بفتوحات خديويها اسماعيل باشا كلاً من انكلترا وفرنسا إلى أن تفحّصا عن دخلها وماليتها ووضعها خزانتها تحت الضبط والتحقيق فحاولت إذ ذاك انكلترا أن تحرم فرنسا حقها فيها وقد ساعد محاولة مساعيها تمرد اعرابي باشا الذي كان يأبى كل الإباء تدخل الأجانب في الشؤون المصرية لأنها أي انكلترا لما رأت أن فرنسا تتربص عن إشهار السلاح على اعرابي المذكور وعن منازلته تغفّلتها وغنت بدهائها تلك الفرصة لإنجاح أمانيها فحشدت جنودها وسارت إليه وحدها تبغي مناجزته وهي تدّعي بفعلها هذا المحافظة على السلم والسكينة في الأنحاء المصرية ولم تعتم أن ادخرت لها مالهما وحازت كل ما بها وطفقت منذ حينئذ تتولى سياسة مصر وتدير شؤونها وهي لا تزال محتلة ربوعها تنظر في استيفاء موجبات سياستها رغماً عن احتجاج الدول الأوروبية عليها مما يوهم استحكام صبغة الرئاسية والاستيلاء لها فيها دون سواها بتحول الملاك إليها واستقراره في نصاب معين.

أما مجموع سكان القطر المصري فتسعة ملايين وسبعمئة ألف فالقاهرة التي هي قاعدة خديويها قد استوفت العمران الحضري وتزايدت بها الصنائع على التأنق فيها واستجادة ما يُطلب منها بحيث توفّرت لها بها دواعي الترف والثروة ونما عدد أهليها حتى أربوا على تسعمئة ألف وهم على حصة موفورة من النجاح والإيسار وحظ متميز بين جميع أنحاء القطر وتليها الاسكندرية التي انفجرت وهي أيضاً في الحضارة فتجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في ما تدعو إليه عوائد الحواضر كالمباني وأصناف الغناء واللهو

مـن الآلات والأوتـار وتنضيـد القـرش في القصـور وهلـم جـرّا. إلى غـير ذلـك مـما يسـتوقف الطـرف ويملـك النفـس.

مـص: لعمـري إني لم اكـن لأعلـم أنـك مـن الوقـوف عـلى التاريـخ الجغـرافي بالمـكان الـذي حللـت إذ وصفـت لي مـا وصفـت مـن محاسـن مـصر وفرائدهـا البديعـة فلقـد كفيتنـي الآن مؤونـة المطالعـة وخففـت عنـي وقـر العنـاء والاعيـاء في سـبيل الفحـص والتفتيـش حتـى إذا بـدا لي فيـما بعـد الاسـتعلام عـن أمـر تاريخـي بمـا نـراه مـن العواصـم والجزائـر والحـواضر بـادرت إلى اسـتفتاء سـعة اضطلاعـك واعتمـدت عليهـا أي اعتـاد.

مـم: لا تكـن أيّهـا العزيـز مـن الذيـن يغالـون في المـدح والاطـراء فلقـد أعلمتـك إني اقتـصرت في وقـوفي عـلى واسـتقراء تاريـخ دولتـي العليـة الرفيعـة المنـار والعزيـزة الشـأن وعليـه فـإذا اعـترض لـك إشـكال أو اختلـط عليـك أمـر لـدى اسـتطلاعك غـير تاريخهـا فـما عليـك إلا أن تواصـل درسـك وتُـذكي عزائـم جهـدك نشـداً لضالتـك واهتـداء إلى محـور رميـك فبذلـك تتوفـر لكلينـا العوائـد والفوائـد إذ يكـون كل منـا ابـن باعـه وذراعـه.

مـص: لـو درّاك إنـك لقـد عـززت قائلـة وأصبـت ناطقـة فعـلى العاقـل أن يسـوم نفسـه المطالعـة بحسـن نظـر وتثبّـت يفضيـان بـه إلى الحقيقـة وينبغـي لـه أن يسـبر وقائـع الأيـام معيـار الحكمـة والوقـوف عـلى طبائـع الكائنـات وتحكيـم البصـيرة في الأحـداث فـلا يضـل عـن جـادة الصـواب تائهـاً في بيـداء الوهـم والشـطط.

م م: إذن هلـم بنـا نسـتأنف السـير فاليـوم موعـد الباخـرة الايطاليـة «فلوريـد» وعليـك أن تأخـذ الأهبـة لسـفرنا هـذا.

الفصل التَّاسع عشر
في سفرهما إلى نابولي

•••

ركبا الباخرة المذكورة في يوم بهيج أقشع سحابه وسطعت شمسه وست بحره وطاب هواؤه وتوفّر أُنسهُ فسادت بهما تمخر عباب اليمّ بسرعة ودقة إلى أن توارى الساحل عن رأي العين فأخذت مريم تسرح اللحظ في تلك اللجج العميقة والأمواج المتراكمة التي كانت تتكسر على حافة المركب فتحدث جلبة ودوياً وكان منصور يردّد قول حليلته له أن العلم على اختلاف ضروبه لا يُرى في المنام. ولا يورث عن الأعمام بل لا بدّ للحصول عليه من ردّ الضجر عن النفس بالمصابرة على العمل وإدمان السهر فتناول لأجل ذلك كتاب جغرافية كان في خريطته وأخذ ليسمي همته إلى إدراك ما فيه من معانٍ جليلة وشروح تاريخية ثمينة فحمله على الروح وحبسه على العين أياماً فخزن منه في القلب ما خزن وخلّص مسائله من لبس الشبهات بكثرة المدارسة حتى أنه لم يستفق من سورة اجتهاده إلا وقد دخل مرسى مدينة نابولي فنزل هو وقرينته في أحد فنادقها وأقاما بها نحو ستة أيام. أما منصور فكان لا يزال غائصاً في النظر والتحقيق والتعليق إلا أن مريم خرجت تطوف في شوارع المدينة منتزه فذهلت عن نفسها طرباً ولهواً بما آنست به

اعجابها من بديع منظرها حتى أنها لم تعد إلى منصور إلى بعد مغيب الشمس فنهض لاستقبالها وقد أوجسه إبطاء عودتها إليه فقال لها:

مص: ما لك قد اقتصرت اليوم أيتها اللبّة على وجبة واحدة ألعلّ المبادرة راعتك فشغلتك عن الرجوع العاجل تناولاً للغذاء في حينه.

م م: أجل إن فيها ما يدعو إلى الاعجاب والثناء وهي مدينة ساحلية يعترض البحر أمامها في الناحية الجنوبية الشرقية منها وأنها من أحسن البلاد الايطالية وأحفلها بالسكان لأن عددهم فيها على ما قيل لي ٥٣٦,٠٠٠ نسمة وموقعها في لحف جبل البركان وهي مشحونة بالأرزاق على اختلافها ففيها الحقول الواسعة وأشجار الأعناب المنتظمة والبساتين المثرة بأنواع الفواكه وأصنافها ولها المرتبة الأولى (في البلاد الايطالية) في الفنون والصنائع إلا أن جنوة قد سابقتها في البحر فأحرزت لها الأولوية لأنها أي جنوة لم تكن مرسى لإيطاليا الشمالية فقط بل أصبحت في هذه الأيام ميناء لسويسرا والمانيا بعد فتح نفق سان كوتار (S. Gothand) ونابولي كانت عاصمة الملك المعروف باسمها الذي كان يتناول ايطاليا الجنوبية.

مص: لقد سرّني أنك عنيت في البحث عن آثار وبلاد غير بلادك واستطلاع أحوال أقاليم ليست من اقليمك شأن الحكيم العاقل فتعالي نطوِّف في أهم المدن المحتوية عليها الأقاليم الإيطالية فلعلّك بذلك تحكمين الدراية بتحقيق أوصافها حتى تتم لك بذلك فائدة البحث وتصبح رياض معارفك الخضلة بعيدة الندى وعرصات محاسن اضطلاعك فسيحة المدى.

فصرفا نحو الشهرين في البلاد الإيطالية يتفقدان آثارها الجميلة ويتنقلان من مكانٍ إلى آخر في جميع أنحائها فكانا يقومان في وقت واحد بقضاء أمرين جعلاهما الغرض من سياحتهما وموضوعاً لرحلتهما هما الانتراه والوقوف على عجائب البلاد من أوصاف وأخلاق وآثار وأطوار وهلم جرا. فكان منصور كلما أتى على زيارة مدينة أو بلدة علق في مفكرته تلخيص ما عاينه فيها وظهر له من تاريخها.

الفصل العشرون

فيـما علّقة بمفكرتـه من الحواشي عن البلاد الايطالية

•••

قبـل أن ينزحـا عـن البـلاد المذكـورة ابتـدرت مريـم إلى اسـتعلام منصورهـا عـما انكشـف لـه عـن أحـوال ايطاليـا وسـألته مـا الـذي ظهـر لـك منهـا بعـد تحقيقـك ومـا كانـت خلاصـة تعليقـك لمـا اودعـت مفكرتـك مـن المباحـث.

مـص: إن مـا استشـففتهُ مـن وراء مباحثـي المسـتفادة بكـثرة النظـر وإعـمال الفكـرة هـو أن ايطاليـا يحدّهـا شـمالاً جبـال الألـب المشرفـة عليهـا بمرضيهـا الشرقـي والجنـوبي التابعـين لأملاكهـا ويحيـط بهـا غربـاً البحـر التيرانيـاني مـن خليـج جنـوة إلى بوغـاز مسـينة ورأس سـبارتيفانتو (Spartivento) والبحـر الأدرياتيـكي شرقـاَ مـن خليـج البندقيـة إلى رأس لاوكا (Lenca) والبحـر اليونـاني جنوبـا (Yonienne) ومسـاحتها ٢٨٦,٦٤٨ كيلـو مـتر وقـد أعجبنـي موقعهـا وهـو متوسـط للبحـر المتوسـط بيـد أن هيئتهـا محزنـة غائمـة لانفصـال أجزائهـا وعـدم التحامهـا ببعضهـا وأمـا سـطح أرضهـا ففـي الناحيـة الشـمالية منـه بسـيط وطـيء تكـثر فيـه السـيول وتعظـم في طرفيـه الغـدران والمسـتنقعات وفي جهتيهـا الوسـطى والجنوبيـة آكام وهضـاب وأنجـاد وآثـار بركانيـة وجبـال ناريـة وأمـا مناخهـا فيختلـف اختـلاف أرضهـا وإنمـا يحمـد اعتـدالاً في جهتيهـا الجنوبيـة والمتوسـطة. وأجـود منـاخ في كل البـلاد الايطاليـة هـو مـا تسـتمتع بـه جزيـرة صقليـة.

م م: إن هـذه الأمـور قـد لحظتهـا أنـا أيضـاً واختبرتهـا بنفـسي أثنـاء جولاننـا فيهـا. ففيـما يصفـه لي جميـل الظـن بـك أنـك تحـدث عـما أجهلـه مـن تاريخهـا الجغـرافي فهـل لـه تعليقـة في مفكرتـك.

مـص: يـا لـك مـن لجـوج. تغالـين في الالحـاح وسرعـة الطلـب حتـى لم تدعينـي آتي عـلى آخـر كلامـي الـذي يقـضي لـك سـؤالك فقـد أعلمتـك أن في المفكـرة أمـورا كثـيرة ذات بـال اتلوهـا عليـك إذا أعرتنـي أذنـاً صاغيـة ولم تعـترضي لكلامـي قبـل الفـراغ منـه وعليـه فاعلمـي أن ايطاليـا لمـا كانـت أرضهـا منقسـمة إلى أقاليـم منفصلـة بعضهـا عـن بعـض بـداع تركـب أرضهـا لم يكـن لهـا إلا صـورة دولـة أجيـالاَ طـوالاَ فتوفقـت روميـة قديمـاَ إلى أن ضمـت سـكانها المختلفـي الأجنـاس إلى شـعب واحـد ولكـن لمـا صـار ملكهـا إلى أيـدي البربـر عـادت إلى حالهـا الأولى مـن تشـعّبثها وانقسـامها في القـرون المتوسـطة كانـت كل مدينـة في ايطاليـا كرسـيا لجمهوريـة شـأنها إصـلاء مـا جاورهـا مـن المـدن الأُخـر نـار حـرب دائمـة فميـلان كانـت ضـد البندقيـة وجنـوة ضـد بيـزة (Pisa) وفلورنسـا ضـد أرازو (Arezzo) وروميـة مقاومـة لفلورنسـا ونابـولي فانتهـز الأجانـب فرصـة هـذا الخصـام وذلـك النـزاع السياسـيين ليتغلبـوا عـلى البـلاد ويفتتحوهـا مغنـماً بـارداً حتـى لقـد كانـت ايطاليـا مـن القـرن الخامـس عـشر إلى الثامـن عـشر ميدانـاً ومضـماراً تتسـابق فيـه وتتنافـس في الاسـتيلاء عليـه كلّ مـن فرنسـا واسـبانيا والنمسـا وقـد كاد يدركهـا الانضـمام إلى مملكـة واحـدة في عهـد الثـورة الافرنسـية لكنهـا عـادت بـصروف الزمـان إلى حالتهـا فانقسـمت سـنة ١٨١٥ إلى ولايـات مختلفـة متشـعبة أمـا اليـوم فقـد ملكـت وحدتهـا السياسـية وتألقـت

كلها مملكة واحدة بما صادفته من مساعدة فرنسا لها فضلاً عن نهضة شواعر الشعب الايطالي التي مهدت العقبات أمام ذلك الاتحاد فسكان البيامنتي انضموا إلى الميلانيين ١٨٥٩ وبرم ومودان وتوسكانا وصقلية تم اتحادها من ١٨٦٠-١٨٦٢ والبندقية ١٨٦٦ ورومية والمملكة البابوّية ١٨٧٠ فأصبحت وهي دولة ملكية يتعاقب فيها حكم آل سافويا المالكون الذين جعلوا قاعدتهم رومية بعد أن كانت أولاً تورينو ثم فلورنسا.

م م: إني ألتمس منك حل اشكالٍ عرض لي مما ذ كرته في سياق حديثك فقل لي يا رعاك الله ما كان موجب الاختلاف بين تلك الولايات الايطالية وما الذي جعله يستحكم فيها قروناً عديدة.

مص: إن الشعب الايطالي هو على اختلاف في أطواره وأخلاقه ومنازعه وخصوصياته والسبب في ذلك هو ما طرأ على بلادهم من الغزوات والفتوحات الأجنبية التي أحرزها مفتتحوها على التوالي من مثل الشالتيين (وقد مر ذكرهم) والليكوريين والافرنسيين والكاتبين واللامبرديين الذين أتوها من جهة الشمال ناهيك عن العرب الذين وثبوا عليها من الجنوب فانقلبوا بالظفر والغنيمة فنتج عن تلك الاحتلالات مجموع اختلاط من قبائل مختلفة المتنازع والمشارب ومما زاد اختلافهم ووق تغايرهم تأثيرات المناخ ونوع المعيشة فإنها قد أنشأت الخلاف حتى بين سكان ايطاليا الحاليين فإنك ترين سكان البيومنتي قوماً أذكياء المدارك حذّاقاً صنعي ذوي حماسة لكنهم لا يخلون من بعض شراسة وعنف على حين أن الميلانيين أو البندقيين

ترينهم قد أعرقوا في العمران الحضري وتلوّنوا في عوائده ورقة حاشيته في جميع أحوالهم لما فطروا عليه من جزالة الطباع ولطافة الأخلاق وتشاهدين بين الكالابري والنابولي فرقاً يذكر فالأول رصين راج الحصاة مخلد إلى الصمت والسكون والآخر خفيف نزق لا حصاة له مهذار يرتاح إلى حديث خرافة.

م م: قد فقهت الآن حلّ الاشكال فواصل إن رأيت تتمة حدثك عن ايطاليا الحالية.

مص: إن ايطاليا الحالية قد انبسطت آمالها إلى أن تنتظم في سلك الدول الأوروبية العظيمة الشأن فحسّنت حال جيشها وأجادت تنظيمه بحيث يتهيأ لها أن تجند وقت الحرب مليونين وسبعمئة جندي وقد أنشأت لها أسطولاً يتألف من ٤٤ سفينة حربية وأقامت لها مستعمرات في البحر الأحمر من حيث تسعى لتمتد إلى بلاد الحبشة وهي تملك ١٥,٤٧٦ كيلومترا من الخطوط الحديدية و٣٠,٠٥٥ كيلو متر من الترمواي البخاري إلا أنها لم يتوفر لديها من مداخيلها ما يفي بالنفقات الطائلة فإذا اعتبرنا الزراعة فيها اعتباراً إجمالياً فلان يُحكم عليها بتوسط الحال بالأولى لأن فيها أرضاً كثيرة بائرة سنجة وأدوات الحراثة عندهم معيوبة ساقطة والسبب في ذلك نقصان مواشيهم وعدم توفر المراعي والأكلاء في نواحيهم والصنائع عندهم اللهم إلا تعدين الفحم الحجري هي في خمول وتقهقر بالنسبة إلى سائر الدول الأوروبية والتجارة التي تصاعدت أرباحها من ١٦٠٠ مليون إلى ٢٢٨٤ مليون لا تكاد تكفي عامة سكان ايطاليا فلم يكن ليتيسر لجميعهم

المعاش الكافي والحالة العمومية منكودة شقية وهذا ما يدعو أحياناً إلى التمرد وحدوث الثورات والمشاغب في بعض أنحائها ولعله جاء سبباً للقتل والانتحار والنهب أحياناً: أما عن نموهم فحدثني ولا حرج فإن المواليد عندهم لا تقل عن ١٨٠,٠٠٠ ومجموعهم بحسب احصائهم ٣١,٤٧٩,٢٢٠ فهذا ما عرفته عن البلاد وسكانها رويته لك بالتحقيق والتدقيق.

م م: لقد ورد على سمعي وأنا في الديار الامريكية أن للإيطاليين عوائد ذميمة وأطواراً منكرة تنبو عن سماعها الآذان وليستقبحها التمدن الحضري فهل وقفت على أثر لذلك في مباحثك الطويلة أو هل لحظت أثناء جولاتك ومحادثتك مع سكان البلاد ما يحقق ذلك المسموع.

مص: إن ما سمعت عنهم من الأحاديث الملفّقة ليس له نصيب من الصدق والصحة فان هو إلا بهتان وهذيان وهب أن فيهم كما في سائر البلاد قوماً رعاعاً تخلقوا بأخلاق الدناءة والابتذال فذلك مما لا يسمح لنا أن نقوله عن عموم الايطاليين إذ ما يحمل على الأفراد لا يمكن اطلاقه على الجمهور وعليه فليس لك أن تثقي بما تسمعين قبل أن تسبريه بمعيار العقل والفكرة مستدلة على حقيقته بطريقة الاستقراء والتجربة فها إني قد عجمت عود السواد الأعظم منهم فلم أر فيهم إلا وجوهاً باسمة وأخلاقاً كريمة يألفها ذوو الطباع السليمة ويأنس بها الناظرون إليها واذا كان بينهم من ساءت سرائرهم واستُقبحت أطوارهم على ما سمعت ووصفت فأولئك لم يكونوا كما أرى على الحالة التي ذكرت إلا بسبب الفقر المدقع الشديد الوطأة عليهم فهو

الـذي حملهـم أن يحدثـوا الثـورات المرجفـة ويغـزوا الغـزوات الجافيـة البربريـة ويشـنوا الغـارات الشـعواء وهـو مـا دعاهـم إلى إيثـار المهاجـرة عـلى القـرار في مواطنهـم حتـى كاد يـربى عـدد النازحـين عنهـا في السـنة عـلى ٢٠٠,٠٠٠ ولا يخفـى عليـك أننـا في جميـع العواصـم التـي تعهدناهـا مـن البـلاد الايطاليـة كجنـوة ونابـولي وصقليـة وعاصمتهـا بلرمـة لم تصـادف إلا كل مصانعـة ومجاملـة مـن الرفيـع والوضيـع والمشـهور والمغمـور.

م م: أجـل إني لا أبـرح اتذكـر ذلـك بالبـشر والـسرور در ولكـن مـا لي أراك تتعـرض لذكـر صقليـة وعاصمتهـا مـع أننـا لم نطـأ بعـدُ ثـري أرضهـا ولم ينتـه إلينـا شيء مـن أخبارهـا ومروياتهـا فكيـف تستشـهد بكـرم خلائـق أهلهـا وخفـة روحهـم وأنـت لم يقـع طرفـك عـلى أحـد منهـم.

مـص: عـذراً أيهـا العزيـزة ولكـن لمـا كنـت صارفـاً الفكـرة إلى جزيرتهـم ومشـتغلاً بكيفيـة السـفر إليهـم ظننتنـي إني زرتهـم وديارهـم وخيـل لي إني محتـل ربوعهـم ولذلـك بـدر منـي في تعبـيري مـا بـدر مـن الزلـل والشـطط وعليـه فإصلاحـاً لمـا فـرط أرى الانطـلاق إليهـا اليـوم في غايـة المناسـبة.

الفصل الحادي والعشرون
في سفرهما إلى بالرمة عاصمة صقلية وما جرى لهما فيها

•••

سافرا إليها من جنوة وكان الأنس حليفهما والسرور جليسها حتى إذا حطها على الرحب والسعة أسفرت لهما بمرأى بهيج فتن منها الألباب فأخذا ينعمان بالاً في ما لا يوصف من سعة عمارتها وكثرة خصبها ورفاهيتها حتى لم يستعظما ما سمعاه عنها من تسمية الرومان لها :أنبار ايطاليا وهريها» وتلقيبها عند العرب «بانة الأندلس» فتذكر منصور لدى استماع «العرب» ما جاء في تواريخهم عن فتح هذه الجزيرة أيام زيادة الله الأول ابن ابراهيم بن الأغلب على يد قائده أسد بن الفرات شيخ الفتيا بعد أن كان أغزاها معاوية بن حديج أيام معاوية بن أبي سفيان الذي لم يفتحها الله على يديه فاستقر لهم الملك عليها وطفقت عساكرهم تجيز البحر في الأساطيل منها (أي صقلية) إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في مماليكهم كما وقع في أيام بني الحسين ملوكها الذين كانوا قائمين بها بدعوة العبيديين لكن لما أدرك الدولة العبيدية والأموية الوهن والفشل وطرقها الاعتلال مدّ الافرنج أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وغيرها فارتجعوها وقد فتح لهم الله أبواب المناحج والميامن فاستقلت منذ حينئذ وبقيت والشأن ذلك لعهد انضمامها إلى ملك آل سفويا. فتوزّعته الافكار لما أخذ يجيل خاطره بتلك الأحداث الغابرة في القرون الخالية متأملاً تقلبات الأيام وحوادث الزمان الذي قرض من كان فيها من السكان فلم يبق ولم يذر ودرس آثارهم وعفّى رسومهم

ومحا ذكرهم فرفع عقله إلى المبدع الدائم والغير متغير وقال سبحان مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار. ثم أنه غاص في لحج الفكر التي ضغطت عليه أيما ضغط فأورثته حمّى غشيته أياماً لم يكد يعرى منها حتى ألبست جسمه حلة من الهزال والنحول فاستهالت مريم الأمر وتروّعت منه وخشيت أن يحلّ بقرينها مكروه فأنس منصور توجسها وحيرة فؤادها وانفصام عرى صبرها فقال لها خفضي عليك ولا تجزعي فكل ما يصيب المرء في هذه العاجلة فهو قضاء عناية الله وسابق معرفته ومن نعم يمينه ولذلك فعليك أن تعتصمي لدى حلول النوائب بالصبر الجميل وتسلمي زمام أمورك إلى يد العناية الصمدانية الضابطة الكل والآن لما كان الطبيب اميداو الذي دعوتهُ إلى معالجتي أشار علي بالتنزّه في حدائق البلدة ترويحاً للنفس واستمداداً للعافية أرغب إليك أن تأتمري بأمره وتخرجيني إلى احداها عاجلاً. فبأسرع من غض الطرف لبّت مريم رغبته فاستدعت حوذياً وأمرته أن يسير بها إلى الحديقة العمومية المعروفة بالمنشية فأجلسته تحت شجرة ليمون فيها من حيث كان يستطيع أن ينظر إلى جميع أزهار الحديقة وأشجارها التي تخترقها جداول الماء فكان منصور يطيب نفساً بتلك النضارة الموسومة بها تربة الحديقة ويستشعر بقوى السلامة تدب في عروقه ثم لا يلبث أن يعود وحليلته إلى محل نزولهما فكانت تتنقل به كل يوم بمكان فيوماً تأخذه إلى سهولها المستوية ذات النوامي الدائمة الذكاء والاخضلال لما خصّها الله بما لم ينعم به على سوى أرضها من اعتدال حالة الجو ولطافة الهواء وتارة تقوده إلى مروجها المنفسحة وأوديتها الوطيئة وهي مشحونة بالأرزاق على اختلافها مملوءة بالنخيل

والعجـمات وأشـجار القطـن المختلفـة الأنـواع والمـوز وقصـب السـكر والشـاه بلـوط وفيهـا البسـاتين والحدائـق مثمـرة اثمـاراً عجيبـاً بالليمـون الحامـض والبرتقـان والنارنـج واللـوز والتـين والزيتـون فـكان يعجـب بهـا لأنهـا مثّلـت لـه أتربـة بـلاده السـورية

خصوصـاً لمـا شـاهد فيهـا مـن الكـروم وانتظـام أشـجار الأعنـاب مـا لم يشـاهده في كل النواحـي الايطاليـة حتـى أنهـا تصـدر هـي وحدهـا مـن الخمـر ربـع مـا يُجنـى مـن بنـات العنقـود في كل المملكـة الايطاليـة وآونـة كانـت تذهـب بـه إلى مرسـاها المجيـب الشـأن القائـم في المعـرض الشـمالي مـن الجزيـرة فيعـود مـن رؤيتـه نشـيطاً منتعشـاً بعـد أن أمّـهُ بطـرف ناعـس ناعـش ولم تـزل بـه عـلى تلـك الحـال إلى أن راجعتـه قـواه وعاودتـه سـلامته حتـى إذا اسـتبشرا بالفـرج واستسـقيا تلـك الجزيـرة الخصبـة ارتحـلا عنهـا بعاملـين يتنازعانهـما الاغتـمام مـا لحـق بالمنصـور مـن اعتـلال عافيتـه والاستبشـار بمـا نالـه مـن فضـل ربـه مـن تعافيـه والـبرء مـن علتـه.

الفصل الثَّاني والعشرون
في سفرهما إلى جناف

•••

بعد أن تماثل منصور كما أسلفنا للصحة وثابت إليه قوته نشط للأسفار وركوب الجار فركب هو وعقيلته القطار الحديدي الذي يسير بين جزيرة صقلية وسائر الجهات الايطالية ومن غريب ما رواياه هذه المرة عن القطار وشؤونه هو أنه لدى بلوغه إلى مرفأ بلرمة التي يفصل بينها وبين سائر النواحي خورٌ أو بوغاز يدخل في مركب بخاري لامس اليابسة معدّ لهذه الغاية يكون في انتظار القطار فيبحر حالاً مجتازاً به وبمن فيه إلى العدوة المعارضة والغرض من ذلك رفع دواعي الارتباك عن المسافرين في الخط والاقلاع وتنزيههم عن أسباب العناء والمشقة فلما وصلا إلى البر سار بهما القطار ووجهته البلاد السويسرية وقد قطعا بلاداً كثيرة في سفرتهما هذه لا حاجة لنا بذكرها وطويا بيداً وفيافي قصر الوصف عن حسنها وتمثيل بهجتها وما زالا كذلك حتى انتهيا إلى تخوم سويسرا إحدى دول أوروبا المتوسطة وهي تشبه براو بيها وشوامخ جبالها واطّراد أنهارها وغضارة ونضارة تربتها الجبال اللبنانية فحينئذ التقت منصور إلى عزيزته وقال لها لا بأس إذا حدثتك عن هذه البلاد وشؤونها ونحن الآن في سفر فيجدر بنا فراراً من لحوق السآمة والملالة أن نتجاذب أطراف الأحاديث فالمسافة تقطع بالمحادثة والمجالسة دون أن يُنتبه إلى حواشي طولها.

مـص: إن الإقليـم الـذي يمتـد مـن البحريـن الشـمالي والبلتيـكي إلى البحـر الأدرياتيـكي ومـن نهـر الريـن (Rhin) النابـع مـن البـلاد الألمانيـة إلى نهـر فيسـتول (Vistula) النمساوي المنبع جديـر بـأن يطلـق عليـه اسـم أوروبـا المتوسـطة لأوجـه عديـدة: أولاً نظـراً إلى موقعـه فـإن خطوطـه الممتـدة إلى القسـطنطينية بـين طـرفي أوروبـا وبـين اديمبـورج (Edimbourg) قاعـدة الاقليـم الاكـوسي (Ecosse) المنضـم إلى انكلـترا في أوائـل القـرن ١٩ والمنبسـطة أراضيـه مـن بوغـاز جيبرلـتر (Gibraltar) إلى البحـر الأبيـض تنفـرج منفسـحه نحـو دراسـد (Dresd) عاصمـة سكسـونية (Saxe). ثانيـاً مـن حيثيـة أرضـه فإنهـا جامعـة بينـه وبـين أوروبـا الشرقيـة في انبسـاط سـهولها وانفراجهـا والغربيـة في قيـام جبالهـا. ثالثـاً بالنظـر إلى سـكانها الذيـن ينتمـي السـواد الأعظـم منهـم إلى العنـصر الجرمنـي الموسّـط بـين اللاتـين سـكان ناحيـة الجنـوب الغـربي وبـين الصقالبـة النازلـين بالناحيـة الشرقيـة وعليـه فقـد كان اطـلاق اسـم أوروبـا المتوسـطة عـلى هـذا الاقليـم الـذي وصفتـه لـك في غايـة المناسـبة لكنـه لم يكـن يعـرف بـه إلا منـذ قرنـين أي منـذ دخـل الروسـيون في العـالم الأوروبي الـذي كان يذهـب قُطبـه قبـل ذلـك العهـد منعطفـاً إلى الغـرب لجهـة الريـن: فمركـز أوروبـا المتوسـطة قـد عـاد غليهـا بالعوائـد الجليلـة لأنهـا غـدت معـه محطـاً اضطراريـاً لتسريـح المعابـر ووصـل العلائـق بـين مدريـد وباريـس ولنـدرة مـن جهـة أخـرى فقـد عظـم شـأنها لذلـك وتوافـر عـدد سـكانها وأصبحـت مدنهـا البريـة بحريـة حتـى لقـد جـارت لعهدنـا هـذا دولتاهـا العظيمتـان ألمانيـا والنمسـا تينـك الدولتـين البحريتـين الخطـيرتي الشـأن أعنـي بهـما انكلـترا وفرنسـا. بيـد أن مـا أوتيتـهُ مـن المنافـع لم يكـن ليجعلهـا بمنحـاةٍ مـن الاضطـرار لأنهـا

أي أوروبا المتوسطة بانفتاح تلك المسالك فيها بين الغرب والشرق وبين الشمال والجنوب صارت هدفاً للحروب والغزوات أكثر من سواها من الأقطار الأوروبية ووجب عليها اليوم أن تقابل معاً الغرب والشرق. وقد قلّت مخالطتها لفرنسا من ناحية الغرب منذ استتباب الاستقلال لكل من بلجكة وسويسرا حتى أمست تلك المخالطة متعذّرة بعد انتزاع الالزاس ولورين من أيديها أما من جهة الشرق فلا فاصل بين دولتيها المانيا والنمسا وبين روسيا وهذا ما دعاها إلى أن أقامت في أطرافها على حدودها حاميات تصد هجمات العدو عنها وتمنع شنّ الغارات عليها.

م م: كم تحتوي هذه الناحية الأوروبية من الدول وما شأنها في عيون سائر الأقاليم؟

مص: إنها تتناول خمس دول وأظن إنك حدثت عنها إذا لم أقل وقفت على تاريخها وهي النمسا وسويسرا وبلجيكا وهولندا وألمانيا فثلاث منها ليس لها كبير شأن وإنما قرر لها الملك صيانة للسلم وتوثيقاً لعرى الامان بين الدول الكبيرة المجاورة لها وحسب المادة النزاع بينها أما ألمانيا والنمسا فتحسبان من الدول الأوروبية العظمى وقد تنافسا شطراً طويلاً من الدهر يتنازعان به أولوية السلطة على أوروبا المتوسطة وخيل أن ألمانيا استحوذت عليها وهي تسعى في ابعاد النمسا إلى بلاد الصقالبة في الجنوب الغربي لتستقل هي وحدها بالسيادة عليها.

م م: فاهتـزت مريـم لتلـك الأجوبـة الدالـة عـلى توقـدّ ذهـن منصورهـا وحـدة ذكائـه وقـوة حافظتـه رغـماً عـما طـرأ عليـه في صقليـة مـن العـوارض المؤثـرة فـازدادت حبـاً بـه واعتبـاراً لـه فلـم تنتـه مذاكرتهـا إلا وقـد وقـف بهـما القطـار في مدينـة جنـاق (Geneve) وهـي أشـهر مدينـة في سـويسرا الافرنسـية فراعهـا منظرهـا وأكـبرا شـأنها وأبديـا عجبهـا مـن بحيرتهـا العظيمـة الشـأن الجليلـة القـدر والجائـب يريـد ذكرهـا الآفـاق فركبـا فيهـا زورقـاً معـداً لتنزيـه خواطـر السـياح قـد أخـذ يسـير بهـما الهوينـا يدفعـه رقيـق النسـيم وهـو يجـاري بسـيره سـوابح الطـير في سـياحتهما بتلـك البحـيرة البديعـة المنظـر وأخصّهـا البـط والاوز ومالـك الحزيـن فطابـت نفوسـهما بصفـاء مياههـا واخـضرار ضفافهـا وجـمال طيورهـا عـلى كثرتهـا حتـى إذا خرجـا منهـا منشرحـي الصـدور باسـمي الثغـور اسـتأذنت مريـم منصورهـا أن تعـود منهـا إلى الوطـن العزيـز مخافـة أن ينلـه مكـروه في صحتـه مـن كـثرة التجـوال والتطـواف.

مـص: إني لسـت أخـشى بـإذن اللـه سـوءاً ينوبنـي وقـد استشـعرت والحمـد لاسـمه الكريـم شـعار العافيـة فـلا بـأس إذا اسـتأنفنا المسـير قاصديـن تلـك المدينـة العظيمـة شـيكاغو حيـث ننشـئ لنـا متبحـراً نحـاول الكسـب فيـه بتنميـة مالنـا دون أن نـدع خلقنـا السـوري الشريـف يتّسـم بـشيء مـن المماحكـة والغـش والخلابـة وتعاهـد الايمـان الكاذبـة عـلى الأثمـان رداً وقبـولاً بـل إننـا نتحامـى هـذا الخلـق المسـترذل البعيـد عـن المـروءة السـورية صيانـة لـشرف نفسـنا وكـرم جلالنـا.

م م: أحاطـك اللـه وتـوك بالرعايـة ووفقنـا كلينـا بفضلـه وهدانـا بأنـواره العلويـة إلى مـا بـه رضـاه وخيرنـا في الداريـن فهـو الـرزاق ذو القـوة المتـين.

الفصل الثَّالث والعشرون

فيما لقياه من البر وتهاويله أثناء سفرهما إلى شيكاغو

•••

فارقا جناف المذكورة ووجهتها برصلونة ليبحرا منها إلى نيويورك وهي مدينة ساحلية لها المقام الأول بمرفئها وصناعتها في جميع البلاد الاسبانية وقد توافر عدد أهليها فبلغوا ٥٠٠,٠٠٠ ألف فصرفا فيها ليلة كان منصور في خلالها يحدّث مريم عن كيفية سفرهما بعبارات تشاءمت هي بها واستشفّت من ورائها مغبّة وخيمة فطلبت إليه أن يعدل عن كلامه لئلا تزعجها أضغاث الأحلام في ليلها ذاك ولأجل ذلك فقد استطرد في الكلام إلى حالة البلاد الاسبانية وغرضهُ تفكيهُ مريم وتنزيه خاطرها عن مناحس تلك الليلة النحيسة التي نعب غرابها بالشمائل والمشائم فكانت فاتحة بل عنواناً لخطوب لا يقدر على وصفها إلا من خبرها فقال وقد انقبض صدره.

مص: إن اسبانيا التي كانت من أعظم ممالك العالم في أيامها الأول قد أدركها الهرم ونفدت قوّتها في الجيلين السادس عشر والسابع عشر لأجل استفحال سياستها التي حاولت مواصلة القيام بأثقالها وشد إزرها بالاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا. ولوفرة معادنها الثمينة التي لما استمدتها من مستعمراتها الأمريكية قضت بها إلى الوهن والفشل وأورثتها الكلل والتقاعد عن تعاطي الصناعة والزراعة ولم تأت لها في القرن التاسع عشر الانتعاش من عثرتها وإقالة صرعتها لأجل ما دهمها فيه من الثورات والفتن لأنها صرفت قواها وبذلت أموالها في

سـبيل المنازعـات الأهليـة دون أن تعـود بفائـدة عـلى نهضتهـا السياسـية وهـي لعهدنـا هـذا ليـس لهـا مـن سـبيل للمواصلـة بينهـا وبـين سـواها مـن الـدول وطرقهـا جميعهـا لم تسـتوفِ حظّهـا مـن الكـمال والصيانـة وربمـا جـرت السـفن في بعـض أنهارهـا ولم تملـك مـن الأسـلاك الحديديـة سـوى ١٢ ألـف كيلـو متر تقريبـاً ومـما يحـول دون نجاحهـا موقعهـا فـإن خمـس مساحتها عبـارة عـن سـباخ مهملـة بائـرة. وثلـث منهـا محـروث. والصناعـة فيهـا غـير زاهـرة رغـماً عـن ثـروة مناجمهـا التـي يتعـذّر تعدينهـا لقلـة مسـالكها. والتجـارة فيهـا متوسـطة وظبـى الـكلام أن هـما المقـام الثـاني بـين الـدول الأوروبيـة في جنودهـا وأسـاطيلها ونواتيتهـا لكـن صيتهـا لا يـزال في العـالم مشـتهراً لأجـل اتسـاع البـلاد الأمريكيـة التـي اكتشـفتها واسـتعمرتها وأوجـدت فيهـا قبائـل جديـدة يتكلمـون لغتهـا.

مـا كاد منصـور يسـوق حديثـه إلى حيـث انتهينـا حتـى تعـثر لسـانه وأظلمت بصيرتـه واسـتُغلق عليـه خلافـاً لمادتـه مألـوف الـكلام حتـى لم تسـتطع نفسـه أن تحـدث سرهـا بسـبب هـذا الحـادث الغريـب أمـا مريـم فلـم تُحِـر جوابـاً لأن النعـاس كان قـد تطـاول عليهـا والتهويـم ملكهـا فرقـدت رقـاداً ثقيـلاً فذهـب إذ ذاك منصـور إلى مضجعـه وهـو صـارف فكرتـه إلى مـا لعلهـا تكـون نتيجـة تلـك الحـوادث حتـى إذا أصبحـا تأهبـاً للسـفر وركبـا الباخـرة بعـد الظهـر في ١٠ كانـون الآخـر مـن سـنة ١٨٨٦ وسـارت بهـما سـيراً حثيثـاً وكانـت السـماء مُصحيـة والأريـاح راكـدة والأنـواء هامـدة فلـما حـان وقـت العشـاء كفـا عـلى مائـدة أنيقـة شـائقة مـع جمهـور المسـافرين الذيـن أربـوا عـلى السـئمة فتناولـوا منهـا مـا لـذّ لهـم وطـاب وتنادمـوا وتسـامروا حتـى إذا انتـثر عقدهـم وارفـض حشـدهم وأوى كل

إلى غرفته انزوى المنصوران أيضاً في مخدعهما فما كادا يملكان غمض الطرف حتى أحسّا بجلبة وضوضاء وأشعرا برجة وهزّة في جميع أنحاء السفينة فهيا مذعورين رغماً عن شدة وطأة النعاس الذي تغلّب عليها وتهافت منصور صاعداً إلى ظهر المركب ليتحسس الأخبار ويرى ما حل وجرى فيا لهول الهائل ويا للخطب الفادح الذي يصغر الخبر عنه في خبره وتزهق النفوس لمخافة منظره فإن منصور ما كاد يعلو سطح المركب حتى غشيت باصرتيه حلكة من الظلام والقتام وكأني به يشاهد أبخرة ودخاناً تدافعهما الهواء إلى جهات القضاء فانعقدت تلك سحاباً كثيفاً متراكماً عم الجو انتشاره فاظلمه ولم يمضِ غير قليل حتى تكاتفت أجزاء الغمام وتلبّدت وُطف الغيوم وتراكمت الصبر وعبّست المكفهرة وشمخت القلع فما كذّبت أن تفجرت عيونها وتفتحت كواها وانهمرت مذائبها وميازيبها تصحبها رياح زُعازع وأعاصير عواصف رعود قاصفة وصواعق صاعقة وبروق مشرية فأرسلت الأمواج أزواجاً والأمطار أفواجاً فاشتدت الأنواء واستشرت الفِلاك وتعاظم الاضطراب والهياج ووثبت الغوارب الرجَّافة على الجارية فصرَّمت قلوسها وأجملها ومزّقت أشرعتها وكسّرت صواريها وعطّلت آلتها البخارية ووصدت أبواب الخلاص في وجوه ربّانها ونواتيتها وأحكمت اليأس في نفوس رُكابها فباتت معتسفة المسلك وعرضة لقذفات الأمواج ترمي بها بل إلى حيث سارت وتدافعها من جهة إلى أخرى حتى لم يبق لها أمل بالنجاة وقد تلجّجت وملكتها التيار فايقن حينئذ جميع من بها الهلاك وملكتهم يد الحين بين البحرين.

فلما عاين منصور ما عاين انقلب باليأس والهلع ليطلع مريم على

ما كان... فمن لي بوصف حالة تلك المسكينة وقد رأت حياتها في قبضة الهلكة ومخالب الغمار وعاينت السفينة تحكم أعنّتها الرياح وليس لبّحارتها بارقة أمل بالنجاح. شاهدت ركابها لا يملكون سوابق عبراتهم ولا بوادر دموعهم وهم يتنفسون الصعداء وقد انخلعت قلوبهم واضطر بث حواسهم فأرعشت أيديهم وتزلزلت أقدامهم ورجفت قوائمهم واصطكّت ركبهم وكادت تبلغ التراقي أرواحهم وتحقّقت أنه لم يبقَ لهم عدة للنجاة غير الصلاة ولا عصمة غير الرجاء ولا حيلة إلا البكاء فاستسلمت للعبرات ونثرت لآلئ جفنها واسترسلت في العويل والرنين وهي تعطف إلى منصور لتعانقه المعانقة الأخيرة وتزوّده بقبلٍ وداعيّة هي أحرّ من النار ثم أطلقت من أعماق اللجج تحية من حياتها الفؤادية إلى الوطن وآله بدموع تخنقها وقد ترامى بها الصبر إلى الخذلان فنهك قواها وسلب راحتها وفارقها مسبونةً ناسمةً.

فطويا ليلة نابغيّة وباتاً بهموم تساورهما وأحزان تسامرهما وهما يتمثلان بشعري النابغة:

كلني لهم يا أُميمة ناصبٍ

وليل أقاسيه بطيء الكواكبِ

فبتُّ كأني ساورتنى ضئيلةٌ

من الرقش في أنيابها السمُّ ناقعُ

فلما أصبح الصباح سكنت سورة تلك الرياح وانكسرت شرة الأمواج وقرت فورة القلاك والهياج فاطمأنت على نحو ما قلوب جماعة لا

تفتأ تتباكى وتتشاكي لأنها لا تزال محفوفة بالمخاطر خصوصاً لتعطّل آلة السفينة التي استمرت خمسة أيام طافية على وجه المياه تسير مع النسيم كيفما هبّ وهي لا تقوى على الأحجام ولا تملك التقدّم إلى الأمام فلما أدرك المنصوران أنهما لا يبرحان في حالة لم يبق مما يحفظ عليها الحياة فيها سوى رجائها بالله أن يخلّصهما توجّها إلى سؤاله سبحانه أن لا يخذلهما وطلبا منه بحرارة ان ينتشلهما من مهاوي الردى ولا يجعلها أكلةً لحيتان البحر ومطمعاً لنينانه، وأنهما لكذلك وإذا بهتافات قد تصاعدت وصياحات تعالت ونادي جميع من في المركب «نجاةٌ وفوزٌ وفتحٌ من الله لقد تداركنا الرحمن بفرجه وأغاثنا برحمته» لأن سفينة تراءت لهم عن بعد وهي تنحو نحوهم وتقبل إليهم فازدادوا هتافاً وصياحاً ورفع ربّان مركبهم إعلامه وهو يشير إلى السفينة الماخرة أن تمرّ بهم وتأتي لمساعدتهم حتى إذا انتهت هي إليهم انتقلوا هم إليها بعد اللتيّا والتي فافرجوا روعهم اور وسرّوا عما بنفوسهم من خوفهم وجعلوا يتبادلون عبارات

التهاني بغنيمة السلامة وقد كانت على شفا حفرة من المعاطب وما زالوا على تلك الحال حتى بان لهم الساحل واستقلوا مدينة نيويورك التي ما عتموا أن أرسوا بمرساها واحتلّوا أرضها فلا تسلْ والحالة تلك عن الفرح الذي شملهم فطيّب قلوبهم وشرح صدورهم وأقرّ نواظرهم لنجاتهم من البحر وأهواله وقد قعدوا منها مقعد الهلكات فحمدوا الله الذي تلاقاهم بجميل رحمته ولطيف رأفته بإنقاذه إياهم من براثن المنون واطلاقه نفوسهم من سجون الشجون ولما حان ميقات الفراق شيّعوا وودعوا بعضهم بعضاً وانطلق منصور ومريم إلى مدينة

شـيكاغو وهـما لا يعيـان أمـراً مـما كان لشـدة سرورهـما بسـلامة الوصـول إليهـا.

الفصل الرَّابع والعشرون

في وصولهما إلى شيكاغو وإنشاء منصور محلا تجاريا فيها

•••

انتهى المنصوران إلى مدينة شيكاغو الموفورة العمران والكثيرة الترف بقلوب واجفة ووجوه واجمة وصدور خافقة وهما لا يزالان يتمثلان هول تلك العاصفة التي هتكت حجاب افئدتهما القائمة والقاعدة فخلّفت فيها من التأثيرات والصّور الهائلة ما يبيض له رأس الوليد فلما استقرّ بهما المقام وأرفضت عنها المخاوف وأصبحا آمنين في سربهما أخذت مريم تعنف منصور وتلومه على إنكاره عليها مطلوبها وعدم إجابة ملتمسها في جزيرة صقلية لما ألحت عليه بالرجوع إلى الوطن كما أسلفنا بقولها له لو لبيّت دعوتي وأذعنت لمقالي لما كنّا ابتلينا بتلك الورطة الوبيلة ولما نابنا ما نابنا من رجفات القلب ووجباته وهيهات أن تمحي منه آثار مفاعيلها.

مص: أقلّي اللوم أيتها العزيزة ولم يبق له من موضع وقد سبق السيف العذل فلا ريب أن سفرنا ذاك قد كان بسماح من العناية وقضائها وهي التي خوّلتنا الفرج العاجل بعد ذلك الخطب الهائل فيما تجلّدنا على مضض محنه وتجرّع غصصهِ لم يكن ليذكر لدى معارضته بما أغاثنا به الرحمن من بيّن فضله وعميم جوده وقد زال حذارنا إذ فتح أبواب النجاة أمامنا واعلمي أن الإنسان لا يسلم في هذه العاجلة من المعاطب وقد حفت بالمكاره فمن وجد فيها صابراً محتسباً متجملاً في مصيبته وسلم أمره إلى ربه وتأسّى على ما نزل به اعتدّ له لأخراه

بجميل صبره جزيل الأجر لأن الله لا يضيع أجر الصابرين وعليه فلا نبعة عليك تُخشى في تلك الطارقة وقد أحلَّتنا اليابسة الأمن وسلامة فسكّني إذن روعك واقصري عن عتابكِ فعلي الآن أن أسعى في إبراز مشروعي الذي أطلعتك عليه أثناء سفرنا من صقلية إلى حيز الوجود..

م م: حياك الله وبياك أيها السند الفسيح الذرع الذي لا تنال من صبره الملمّات فلقد علّمتني أمثولة الاعتصام بالصبر وأنت لي ما كنت أجهله من تفويض اموري إلى العناية والاستقامة إلى ما تقضي به أحكامها الأزلية... وما نويت الاقدام عليه فذلك أمر محمود ويا حبذا لو كان النساء مقدرةٌ على الأخذ بناصر رجالهنّ في مثل تلك المهمّات الخطيرة التي عنيتها لأبادر إلى مضافرة من وقفت على مرضاته حبي وحياتي ولكن قل لي إن رأيت أي أمر ترى احترافه يعود علينا كسباً تتأثله فيتزيّد لنا الرفة وتتسع بنا الأحوال ويجيء من ورائه الترف والغني.

مص: ينبغي أن تعلمي قبل مجاوبتي على سؤالك أن تلك المفاعيل الناجمة عن الكسب في الاحتراف التي أشرت إليها بكلامك إنما تأتي عن توفر العمران في المصر فهذه مدينة شيكاغو قد كثر ساكنتها واتسعت أحوال أهلها فلا بدع إذا كثرت أموالها وعظمت ولايتها ويسرت ثروتها ونفقت سوقها فإذا ما احترفنا فيها بالتجارة نفقت سلعنا فيعظم ربحنا وتوفر مالنا.

م م: من المقرر أن التجارة من موارد الارتزاق وهي إحدى الوجوه الطبيعية للمعاش فهي وإن كانت طبيعية في الكسب فالج فيها بالنسبة إلى أصل المال يسير حقير فالأولى بنا والحالة تلك اجتناب

الاحـتراف بهـا.

مـص: قـد فقهـت اعتراضـك الـذي أدى حلّـه مـن أسـهل مـا يكـون أفتجهلـين أن المـال إذا كان كثـيراً عظـم ربحـه لأن القليـل في الكثـير كثـير وهـا أنـا بتوفيـق اللـه قـد أُوتينـا منـه بالنصيـب الـكافي الـذي يعاوننـا عـلى توسـيع نطـاق متجرنـا.

م م: إنـك ولا شـك تعلـم أن المـال لا بـد لتنميتـه بـال مـن حصولـه بأيـدي الباعـة في شراء البضائـع وبيعهـا ومعاملتهـم في تقـاضي أثمانهـا معاملـة أنـت أدرى بمـا وراءهـا مـن الأتعـاب والأنصـاب فنعـاني مـن ذلـك أحـوالاً صعبـة ولا نـكاد نحصـل عـلى ذلـك التافـه مـن الربيـع الا بعظيـم العنـاء والمشـقة إذا لم أقـل أننـا نعـرض بذلـك رأس مالنـا للضيـاع والذهـاب إذا يصـير مأكلـة للباعـة وليـس مـن ينتصـف لنـا منهـم في بـلاد نحـن بهـا غربـاء.

مـص: إن مـن كان ذا جـاهٍ وشـانٍ يمكنـه أن يـدرّع بـه فيوقـع لـه الهيبـة عنـد الباعـة ويحمـل الحـكام عـلى أنصافـه مـن معامليـه و...

م م: عـلى ربعـك يـا صـاحِ فكيـف تدّعـي الجـاه بـين قـوم لا تعرفهـم وأمّـة تجهلهـا وهـي غـير أمتـك فـالأولى بـك قبـل الـشروع في العمـل أن تتعـرّف بعليـة القـوم ووجوههـم وحكامهـم وتزدلـف إليهـم جميعـاً تـارة بالمصانعـة والمجاملـة وطـوراً بالنزاهـة وإخـلاص الوفـاء واصفـاء الاخـاء حتـى تغـدو ذا زلـفٍ عندهـم ومكانـة لديهـم فتنجـح مسـاعيك وتحسـن أعمالـك وتـدرك أمانيـك مـن تنفيـذ مقاصـدك بحيـث تصيـب الغـرض الـذي ترمـي إليـه.

مـص: لقد أصبت وأبيك بمـا نطقت فلأقومن بكل ما ذكرت.

الفصل الخامس والعشرون

(١) في إنشاء منصور محلاً تجارياً (٢) في اشتهاره به (٣) وسبوغ النعم الملوكاتية عليه

•••

مضت على منصور مدة وآماله تسمو إلى منازع التجارة وأسبابها وهمُّهُ الكسب منها وخصب العيش فيها والسكون بظلها إلى الدعة والراحة حتى أن ملاحقته لوجوه تلك المدينة العظيمة ومشاركته لأهل النعم والخصب فيها بنعمتهم وخصبهم لما ناله عندهم من سمو المكانة وكبر الشأن اكسبته بسطة وجاها منقطعي النظير فأنشأ إذ ذاك محلاً تجاريا فسيحاً لم يلبث أن اشتهر في كل أنحاء المدينة لما بذل في سبيل تنشئته وبسطته من وسائل الدرس والمراعاة لقواعد التجارة ورسومها فإنه وفّقه الله أخذ يبحث عن وجوه النفاق لما ادّخر في مخزنه من البضاعة والسلع ويتحرّى ذلك جهده فهدتهُ فكرتهُ ودلته نتيجة بحثه أن الناس إنما يكونون أسوة في الحاجة إلى الوسط من جميع أصناف البضائع فلا تكسد والشأن ذلك سوقة ولا تفسد أرباحه وإنّ نقل السلع من البلد البعيد المسافة يكون أكثر فائدة وعائدة عليه وأعظم أرباحاً له وأكفل بحوالة الأسواق وذلك لأن السلعة المنقولة حينئذ يعزُّ وجودها لبعد مكانها وتغلو أثمانها لقلتها وشدة ما يعاني ناقلها من الغَرر في طريقها ونبهته إلى غير ذلك من الأمور الوجدانية في مواطن التجارة التي لا حاجة لنا بذكرها وكل تاجر يجدها من نفسه فعمد إلى توفير هذه الشروط في تجارته رغماً عما تعرّض من المصاعب لإقدامه ونشاطه الذي أحدث في مزاج روحي نشوة استسهل

بهـا الصعـب واسـتيسر لـه العسـير في ذلـك الوجـه ولمّـا رأى أنـه في غالـب أحوالـه إنمـا يعـاني البيـع والـشراء اللذيـن لا بـدّ فيهـا مـن المكايسـة ضرورة اقتـصر عليهـا واقتـصرت بـه عـلى خلقهـا أي أنـه تحامـي فيهـا مـا يتبـع تجّـار الطبقـة السُّـفلى مـن المماحكـة والغـش والفجـور في الأثمـان وتجـافى عـن غلظـة السفسـفة والخلابـة فاكسـبه نمـط اتّجـاره ذاك جـدّاً في عيـون سـكان تلـك المدينـة وشـهرة جـارى فيهـا تجارهـا مجـاراة عظـم معهـا ربحـه ونمـا مالـه ويفـع مجـده حتـى تـأذّن اللـه يرفـع حالـه إلى منزلـة الأغنيـاء الموطّـإي الاكنـاف.

٢ و٣: فقصـدهُ الغريـب والقريـب وأمّـه القـاصي والـداني وانتجعـهُ كل رائـد حتـى لقـد عُـرف بموئـل الوطنيـين بمـا وفيهـا ومنجدهـم ومفـرج كروبهـم فلـم تكـن أمـوره تحبسـه عـن قضـاء حاجـة كل ملـوع مُضنـى ولا مهامّـهُ لتشـجرهُ عـن بـذل المسـاعدة والإحسـان إلى كل محتـاج اسـترفدهُ وليـس لديـه مـن عـاقٍ يعوقـه عـن المبـادرة إلى نجـد مـن اسـتعانه. ولقـد ذكـرت عنـه شـيئاً مـن ذلـك جريـدة لبنـان في أحـد أعدادهـا سـنة ١٨٩٣ لصاحـب امتيازهـا عزتلـو ابراهيـم بـك الأسـود فأطـرت حميتـه الوطنيـة وأثنـت عـلى غيرتـه السـورية وامتدحـت أعمالـه ومبرّاتـه الخيريـة ومـا اسـتعظمه فيـه فأفردتـه بالتقريـظ والثنـاء فريـد انعطـاف نحـو أبنـاء جلدتـه السـوريين عـلى اختـلاف مذاهبهـم ونزعاتهـم وبثّـهُ روح التضافـر الجنـسي بينهـم واشرابهـم حـب الدولـة العمليـة والوطـن العزيـز في كل محادثـة ومناظـرةٍ حتـى لقـد وقـف منـهُ ناظـروهُ وعارفـوهُ مواقـف الانذهـال والعجـب كيـف أنـهُ أي منصـور رغـماً عـن مهاجرتـه للمالـك العثمانيـة المحروسـة في حداثـة سـنّه وشـباب عمـره لبـث راسـخاً في مبـادئ، أجـداده الذيـن اشـتهروا بصـدق

الـولاء واخـلاص الطاعـة للخلفـاء الاعظمـين الذيـن تبجّحـوا بزهـرة الملـك والابّهـة واختصّـوا بتعلّقهـم الوثيـق بأهـداب صاحـب الجلالـة والعظمـة المتبـوع المفـدّى الجالـس عـلى أريكـة آل عثـمان الذيـن أفاضـوا عليهـم سـوابغ نعمهـم الملوكانيـة وعوارفهـم الشـاهانية وفواضلهـم السـلطانية. وثبـت لائـذا بعصمـة نزعتـه العثمانيـة لا يلويـه أمـرٌ عـن حبهـا واصفـاء ولائـه لهـا والتفاخـر بنـير هلالهـا. فـلا بـدع والشـأن ذاك إذا انثالـت عليـه نعـم المليـك الأعظـم وحبـاهُ خلّـد اللـه أيامـه بمـا حبـاه مـن نـوط اللياقـة (كان أرسـالها إلى منصـور بـك المـرويّ عنـه عـلى يـد صاحـب العـزّة والوجاهة محمـد بـك البحـيري صاحـب جريـدة طرابلـس الغـرّاء وقـد ذكـر فيهـا فصـلاً ضافيـاً في أحـد أعـداد سـنة ١٩٠٤ بـيّن فيـه أنعـام الحـضرة السـلطانية عـلى عبدهـا الأمـين المسـتظل بظـلال عوارفهـا الـوارف) والألقـاب الفخريـة مـا حمـل كل وطنـي أن يتباهـى بـه ويقـدر حـق ابـن النعمـة في شـخصه ويتـأسّى بـه في شـديد تعلُّقـهِ بتابعيَّتـهِ والمحافظـة عـلى الاستمسـاك بثبـاتٍ مبادئـه ولـو طرحتـهُ النـوى كلّ مطـرح ونـأت بـه الأوطـان والديـار.

إن نزاهـة منصـور وصـدق اسـتقامتي وسـلامة نيتـه في معاملتـه ورسـوخ قدمـه في التعلـق بتابعيتـه لم تسـتوقف أبصـار رجـال دولتنـا العظـام فقـط بـل وقعـت بقلـوب أفـراد الـدّول الاجنبيـة وأخـذت بمجامـع أفئـدة رؤسـاء الولايـات المتحـدة الذيـن راعتهـم يقظـة فـواده واختلبتهـم عذوبـة منطقـهِ وفتنهـم تصونـه عـن ملائـم الأخـلاق فعطفـوا إليـه وأنعمـوا عليـه بمـا رفـع شـأنه وأعـلى منـاره في مواطـن الغربـة وإليـك ملخـص الواقـع: إنـه ورعـاه اللـه بعـد أن ذهـب سـمعهُ في تلـك المدينـة الزاهـرة أخـذ يجـول متعهـداً المعـارض التـي افتتحـت أيامئـذ كمعـرض كاليفورنيـا الـذي عـرض سـلعة في

سـوقه التركيـة ففـازت بالحظـوى واسـتأثرت بالأفضليـة عـلى سـواها مـن المعروضـات. ومعـرض اتلنتـا (سـكانها ٣٧,٨٠٠) عاصمـة جورجيـا إحـدى الولايـات المتحـدة البالـغ عـدد سـكانها مليونـاً و٧٩٥,١٣٨ وهـو المعـرض الـذي زاره كفلنـد (Cleveland) الـذي كان أياميـذ رئيسـاً للجمهوريـة الديموقراطيـة ثـم معـرض نسـفيلد مـن أعـمال شـنازيا الـذي شرفـهُ بزيارتـه المغفـور لـهُ الموسـيو ماكنـلي رئيـس جمهوريـة الولايـات المتحـدة السـابق فـكان لمنصـور في هذيـن المعرضـين أيضـاً القـدم السـابقة ولمعروضاتـه القـدحُ المعـلّى لأنهـا لمـا عرضـت في محلّهـا الخـاص بهـا الموسـوم بالمهندسـة الشرقيـة المحكمـة الاتقـان والمجـادة الترتيـب تسـابقت عليهـا الأبصـار لبيـان شـأوها عـلى سـواها وأحرازهـا رضـا الجمهـور وارتيـاح رئيـس الجمهوريـة الآنـف الذكـر إليهـا الـذي أفردهـا بنـوط الامتيـاز وخصّهـا بآيـات المـدح والثنـاء وشـمل صاحبهـا بأنظـاره العاليـة وتعطفاتـه السـامية.

الفصل السَّادس والعشرون

في مولد بهيج

•••

لنـدع منصورنـا يشـيد بـروج المعـالي ويعـلي مشـمخرّات المـكارم بهممـهِ الشريفـة ومنازعـه العزيـزة بـلا جـاهٍ تليـد ولا مـال مـوروث ولا شرفٍ عظامـيّ ولنـأتِ إلى مريـم فـنرى مـا سـمتت لنـا في تلـك الأثنـاء فـلا ريـب بـأن القـارئ اللبيـب وقـد أبطأنـا عليـه بالـكلام عـمّا جـرى لهـا يرتقـب الحديـث عنهـا فهـا اننـا اسـتيفاءً لمطالبـه نـروي لـهُ واقعـة الحـال ومـا كان يشـغلها في ذلـك الخـلال.

ان اللـه رزق المصوريـن أولاداً إناثـاً فرحـاً بهـنّ فـرحَ الوالديـن بأولادهـم لكنهـما أخـذا يطلبـان مـن اللـه مـن صميـم القـواد أن يمـنّ عليهـما بمولـودٍ ذ كـر يكـون عـكازة لشـيخوختها وعـزاء عيشـتها ورجـاء عقبهـما فاسـتُجيبت صلـوات الاثنـين أمامـه سـبحانه وتعـالى وأعطاهـما بغيتهـما التـي التمسـاها مـن لدنـه فكانـت شـيكاغو مقامهـا مهبطـاً لسـلواهما ومظهـراً لفـرح قلبيهما بهـا تجلّـت الأيـام لهـما مـن زينتهـا واسـتشرفت لاعنيهـما مـن بهجتهـا وفي منازلهـا اسـتهلّ وليدهـما وقـد كانـت لـه مولـداً وبأحيائهـا دبّ صبيّهـما وبموائـد أهلهـا تخلّـق وفي لسـان قومهـا انتطـق فسـمّياه بهيجـاً إشـارة لمـا تولاهـما مـن الابتهـاج والـسرور في مولـده وعزمـا عـلى أن يربيـاهُ تربيـة مسـيحية نـادرة المثـال ولذلـك عمـدت مريـم إلى الاعتـكاف عـلى تهذيبـه وتأديبـهِ وانصـبّ منصـور عـلى تجارتـه كـما أشرنـا فكانـت مريـم تحـرق سـاعات نهارهـا باثمـد اجتهادهـا فيـه وتقـضي آنـاء ليلهـا وأطـراف نهارهـا

قائمـة عـلى حركاتـه تحـاذرهُ بعنايتهـا الأمنيـة مـن كل داء يعـرض لـه في بدنيـه منـذ رضاعـه إلى حـين فصالـه فيـا مـا اشـدّ مـا كان ابتهاجهـا عندمـا كانـت تـراه يرشـقها بسـهم الحاظِـه النافـذة وهـو مقبـل عـلى ثديهـا وأعظـم بطربهـا الوالـدي وقـد شـاهدتهُ مختلقـاً يسـفر لهـا بجبـين وضّـاح وجبهـةٍ غـراء ناصعـة وهـو عـلى الحقيقـة ذا

ظـرف وجـمال يفـتن الألبـاب حسـنهُ وتـروّع الناظريـن شـارته الاحوريّـة فـلا ريـب والحالـة هـذه إذا دُعـي بهيجـاً ليطابـق الاسـم المسـمّى. فـكأيّ مـن آثـار رسـمت عـلى محيّـاه اللطيـف بقبلاتهـا الناعمـة ولثماتهـا الرقيقـة وكـم غنّتـه برخيـم صوتهـا وناغتـه بفصيـح لهجتهـا ولاعبتـه باهتـزاز عطفيهـا وتهلّـل بشرتهـا وإشراق ميسـمها وهمّمـت في رأسـه وهدهدتـه في مهـده فكانـت إذا شـكا تطلـق الزفـرات أو بـكى نـذرف العـبرات أو تـأوّه تتّقـد جمـرة لوعتهـا أو تأجّـج تشـتد عارضـة غمّهـا أو هـشَّ تخفـقُ منهـا الجـوارح طربـاً وتتقطّـع الأحشـاء كلفـاً حتـى لقـد كانـت جميـع حركاتهـا موقوفـة لـه محبوسـة عليـه.

ومـن لي بوصـف حالهـا وقـد لاهـى طفلهـا الفطـام وأخـذ يتلفـظ لأول مـرة بتلـك اللفظـة الخفيفـة الوقـع والرقيقـة الاينـاس بمـرأى منهـا ومسـمع أعنـي بهـا «ماما» التـي تلهمهـا الطبيعـة كلى وليـد وتفطـره عليهـا حتـى إذا أخـذ غلامهـا يترعـرع شرعـت هـي تودية عـلى تقـوى اللـه ومخافتـه وتشربّـه حـب التهـذُّب والأدب شـأن الأمهـات المسـيحيات اللـواتي يعنـين بتثقيـف أخـلاق أولادهـنّ وتطهيرهـا مـن سـفالة الملائـم وخسَّـة المعايـب وكـثر مـا كانـت تذهـب بـه إلى بحـيرة ميشـيكان (Michigan) القريبـة

فتركبُه فيها زورقاً يشق بهما عباب البحيرة فتصرف هي سحابة نهارها في تلقينه وتعليمه بما كانت توحيه إليها الطبيعة من الأسرار فكانا إذا عادا إلى مقرهما يأخذ الغلام بهيج يقصّ ما سمع من والدته ويصف ما شاهده من مناظر الكون البديعة لشقيقتيه نظيره وبديعة اللتين كان يتودد إليها فيسترعي منهما الاسماع بسهل معطفه ولين منطقه وانسجام خلقهِ ويبعث بهما على مصافحته حتى يكادا ينحلان قامته بالمعانقة ويذبلان مراشفه بالقُبل فيزداد هو بشراً واينساساً ويزدادان هما ارتياحاً إلى ألفاظه القطرية واستنامةً إلى دماثته الطبيعية وما برحت مريم تُعنى بتربية بهيجها وتبالغ في تهذيبه حتى رسخت في نفسه ملكة الآداب واستحكمت منه نزاهة الأخلاق وحان له أن يرسل إلى أحد المعاهد العلمية ليتخرج فيها بالعلوم واللغات أسوة بشقيقتيه المذكورتين حتى إذا دخل أبوابها تفرّغت مريم عن تلك الشؤون وانصرفت أفكارها إلى الأشغال العائلية ومساهمة منصورها بمسرّاته بولده ونجح مساعيه فكانا كلاهما يصرمان الأيام والليالي برغد العيش وإقبال التوفيق في تلك البلدة الزاهرة إلى أن قضى الله بانتقالهما منها إلى عاصمة المكسيك.

الفصل السَّابع والعشرون

في سفرهما إلى المكسيك واستقرارهما بها إلى يومنا هذا

•••

كان في خريف سنة ١٨٩٩ أن ارتحلت العائلة اللندّية من شيكاغو إلى عاصمة المكسيك فقيض الله لها سفراً سعيداً مقروناً بالميامن ليمحو من خواطرها ما انطبع بها في غمار المحيط من ندبات الأهوال وآثار الخطوب فركبت القطار الذي سار بها سير البرق فمرّ على مدينة فيلادلفيا ثم تابع سيره إلى أن بلغ إلى محطة واشنطن الكبرى وهي قاعدة الولايات المتحدة واقعة على تخوم الأقاليم الشمالية والجنوبية وسكانها يربون على مئتين وثلاثمئة ألف فصرفت العائلة فيها نحو الساعة ثم استأنفت المسير إلى مدينة سان لويس فباتت فيها ليلها وهي من أعظم مدن الميسيسبي وموقعها على ضفة نهر الميسوري (Missouri) وكأني بها بين نهرين عظيمين يحاولان أن يهجما عليها بطغيان مياهها الطافحة من جميع شطوطها. الميسيسبي ومخرجه من ناحية البحيرات الكندية الكبرى وهو على مئة كيلو متر من البحيرة الرئيسية التي تصب في سان لوران فيجري في سهول ولا يعدو حتى يصبّ في البحر لجهة الجنوب وتلتقي به أثناء انحداره عدة أنهر وجداول. والميسوري ومبدأه من جبال صخرية يخرج منها فتخرّ له مرافض أوديتها وهو زُفرٌ أسرع جرياً من الأول وأطول ممراً فراقتهما تلك المدينة وطلبت العائلة إلى منصور أن يصرفا فيها بضعة أيام تنزّهاً واستراحة فأجابها إلى سؤلها فانتشرت إذ ذاك في أحيائها وقد وجدتها بمكان من النجاح لكثرة شعب السكك الحديدية الممتدة في جميع

أنحائها وتوفر حاصلات الأغلال فيها وكثرة معاملها المعدنية حتى إذا انقضى أجل إقامتها فيها شعت عنها وواصلت سيرها إلى أن وصلت عاصمة المكسيك على الطائر الميمون بثغور باسمة وأوجه متهلّلة لكنها ما كاد المقام يستقر بها حتى جال في خواطرها ذكر ذلك البلد الطيب الآخذ من كل حسنٍ سرّه الذي صرفت في ربوعه الأيام الطويلة منغمسة في نعيمه وغارقة ببحر ترفه وخصبه فتأثرت لمغادرته أيما تأثر وحفظت لتلك المنازل العامرة ذكراً خالداً لا يطرأ عليه الفناء ولا يمحو النسيان صورته من الصدور بل لا تصافح أيديهم راحة السلوان عنه «ما دامت الأرض أرضاً والسماء سما».

فاستوطنت حينئذ العائلة المنصورية عاصمة المكسيك واتخذتها مقراً لها إذ أَلفتها مدينة بالغةً غايتها من طبيعة التمدن الانساني والتغلّب السياسي كما سنرى في فصل آخر وقد استقت غريزة الترف من مائها وأرهف النعيم من حدّها فنزعت إلى منبتها وسكنت في ظلّها آمنة فطفق والأمر ذاك منصورنا يتعرّف بعظماء قومها وكبرائهم مزدلفاً إليهم بما فُطر عليه من دماثة الأخلاق وكرم الجانب وعُرف فيه من الهمّة البعيدة المرمى والنفس الرفيعة المصعد فأخلد أولئك إلى رفعة أهوائه وشرف مطالبه فأقاموه تحت ظلال عزّهم ورواق مجدهم فأصبح وكأنه واحد منهم منتشر السمعة بينهم بعيد الصيت عندهم فانتحل في معاشه التجارة أيضاً كما فعل في شيكاغو فكانت مكاسبه هنا أنمى من هنالك وأزيد وأحواله أرفه وأنجح فاتخذ المنازل الرفيعة وبالغ في تنجيدها وتفنن في استجادة ما أعدّه لمعاشه من ملبوس وفراش ورياش وآنية وهلمّ جرا واستوطأ الدعة فجعلها له ألفاً وخلقاً

فتنشأ بنوه في غضارة العيش ومهاد الترف والراحة يتلوّنون بعوائد الحضارة في جميع أحوالهم وشبّوا متخرجين بالعلوم والآداب بما آتاهم ربهم من توقّد الذهن ويقظة الفؤاد وتلهّب الذكاء لا سيما الفتى بهيج الذي جاء آية من آيات الله في دقة فهمه وصفاء نفسه ولطافة حسّه ورقة ملكته وبراعة

ظرفي ورجحان حلمه ففتن الألباب وشغف القلوب واستملك العيون بحيث ساغ لكل أن يحمل عليه ما قاله محمد بن الحسن الحاتمي:

لي حبيب لو قيل لي ما تمنّى

ما تعديته ولو بالمنونِ

أشتهي أن أحلّ في كل جسمٍ

فأراهُ بلحظ كلّ العيونِ

فسرّ المنصوران به وبسائر بنيهما وشكرا الله نعمتهُ فيهما بما رزقهما من أسباب النجاح والاقبال في البنين والجاه والثروة مما يغبطهما عليه الولي ويحسدها العدو.

الفصل الثَّامن والعشرون

في مكاشـفة منصور بهيجه بما في نفسـه واسـتجلاء هذا ما تعمّه على بصيرته من الأسرار

•••

مضـت الأيـام وانقرضـت الأعـوام وتصرّمـت السـنون ومنصـور راتـع في مراعـي الخصـب والهنـا يفـتر لـه ثغـر الأمـاني بـلا هـمّ طـرق مضجعـه ولا كآبـة تقـرع سـاحته وهـو منعـمٌ بـالاً بنجـاح عائلتـه عـلى سـلامتها وبإقبـال مشـاريع سـيادة شـقيقه المونسـنيور بولـس فرمنـط لنـدي النائـب العـام على مـزار لوراتـو في تلـك البـلاد السـحيقة فخرجـت ذات يـوم عائلتـه إلى بعـض منتزهـات المدينـة وهـي عبـارة عـن حديقـة فيحـاء وروضـة خـضراء يؤمّهـا المنتزهـون وينتابهـا المنشرحـون وهـي عندهـم بمثابـة حديقـة عموميـة فدخلهـا منصـور ومريـم وولدهـا وأخـذوا جريـاً عـلى عـادة المتفرجـين يتأملـون طرائفهـا ويتقصّـون زخارفهـا وتهـادون أنسـها ويتقاضـون أسـباب حظّهـا حتـى لـوى الطـرب أعناقهـم بمـا شـاهدوا فيهـا مـن الرياحـين والازهار العابقـة الشـذا والأشـجار المتنوعـة البديعـة المنظـر تتلاعـب في جذورهـا جـداول الأنهـار وتطـرد سـواقي الميـاه في أصولهـا فأخذهـم العجـب كل مأخـذ وأذهلتهـم المسـرّات عـن الرجـوع إلى منزلهـم بحيـث لم ينتبهـوا إلا وقـد تـوارى كوكـب النهـار وحنـدس الليـل مخيّـماً بظلالـه السـاجي ومرنّحـاً الأعطـاف بهوائـه البليـل وأفقـه الزاهـي الجميـل المرصّـع بالنجـوم المصرّحـة سـماؤه والمقشـعة طخافـه (سـحاب رقيـق تُـرى السـماء مـن خلالـه) ومـا

دروا إلا وقد طلع البدر عليهم ونشر ضياء أشعته على تلك الروضة فما لبث ظل أشجارها الباسقة أن تقلص أمام نور القمر فعرت بهيجاً لدى رؤيته البدر هزّة واستشعر في صدره جولة لخواطر لم يتمالك من دفعها ولا قوي على ابرازها فصاح بفم ملؤه العجب والاذهال أي أبي إن مشهد هذا البدر الليلي قد أخفق جوارحي وضغط على جوانحي ولا أدري كيف أعلّل ذلك.

فأسبلت حينئذ عبرة منصور وقد استغرب الأمر حيران فيه وأكبر أسرار الطبيعة فقال سبحان المبدع الخلاق الذي غرز في النفوس حبّ الدولة والوطن فمن أين لهذا الغلام الذي لم تسعده الأيام بمشاهدة وطنه ولا تاحت له الاقدار الأزلية رؤية شعار دولتي خافقاً في هذه البلاد الأجنبية أن تتلجلج في صدره مثل تلك الشواعر ويلهم قليه مثل هذه الأسرار فلعمري إن في هذا لعجباً. ثم لحظ بعينه بعين جالت فيها دمعة الافراح وقال له:

مص: اعلم هداك الله يا بني إني كلما نظرت البدر يذرّ في أفق هذه البلاد الغربية دبّت فيّ قشعريرة وسرت إلى جسمي هرّة وعطفت بي عاطفة الحنين إلى اللواء الهلالي وثارت بفؤادي سورةُ الشوق إلى لثم ذاك العلم العثماني الأنور الذي تشاهد صورتهُ مرسومة على جميع سلعنا وبضائعنا وهو شعار لمخزن والدك المعروف «بمخزن الهلال» فالهلال هو راية دولتنا العثمانية ولولاه لما عاينت البدر طالعاً في سماء هذه البلاد فلك ودّت عيني أن ترى لواءه منشوراً فوق النوادي

المكسيكية ليتمثّل لك ولإخوانك صورة الأوطان العثمانية المعبودة التي لا تزال مجهولة لديكم.

بهيج: أوَ لم اكن وطنياً في البلاد هذه وإني فيها أبصرت الوجود وعلى تربتها أجرّ أذيال صباي وفي معاهدها أتخرّج ومناهل آدابها أرد ومن فرات مياهها استقي فلممري إنه لم يستكّ في مسامعي قطّ مثل كلامك سيدي فهذه هي المرّة الأولى التي أوحت إليّ الطبيعة في هذه الروضة بهذا السرّ الذي توجست به وعجزت عن بيانه ولولا هذا النير الساطع والبدر الطالع لما اهتديت أنا إلى الهلال ولا تذكرت أنت الربوع الوطنية الخافق فوقها بنده فحبذا اللازم والملزوم والدال والمدلول. بيد أن ما كنت تنقش رسومه على السلع والبضائع من أعلام الهلال كنت أخاله قبل الآن مما تفعلهُ تيمّناً ودفعاً للمشائم والمياسر وليس لك وراء ذلك من غرض آخر ترمي إليه.

مص: سماعك إلي يا بني فإن الأمر على غير ما عهدت لأن منبتك سورية وتابعيتاك الدولة العثمانية العلية وهذا الهلال الذي كان مجلبة للميامن على والدك هو دايتها السنية ويا ليتها تعمّ الخافقين فيتناول خفوق بندها هذه البلاد لتقرّ به عيناً في ديار الغربة وتتعزّى به عن ذكرى الوطن إذ نحييه صباح مساء ونبثه عواطف اخلاصنا وصدق عبوديتنا على مرأى من سكان هذه البلاد ليعلموا أننا قوم أشربوا مع الحليب حب دولتهم فهم يستميتون في غنيمة مرضاتها ويتباهون باستفحال ملكها واعتزاز أبّهتها واستحكام صولتها إذ لا تلويهم عن رعاية حرمتها مرامي البعاد ولا تثنيهم عن المجاهرة بطاعتها والتعلق

بعراهـا المهاجـرة عنهـا والإقامـة في بـلاد أجنبيـة فرضـت عليهـم العمـل بشرائها والاسـتنان بطرايقها فعليك إذن يـا بنـي أن تـصرف قصـارى همتـك لترسـخ في فـؤادك ملكـة حبهـا وتسـتحكم لـك عـلى مثـال أبيـك صيغـة الانقيـاد إلى أواصرهـا الطاعـة بحيـث لا تحـدّث النفـس منـك سرهـا مخالفـة لهـا ولا يختلـج في ضمـيرك انحـراف عـن طاعتهـا فهـذا جـلّ مـا بـه أوصيـك فيـه، وأحفظـه فتـح اللـه لـك أبـواب المناحـج والميامـن.

مـا كاد منصـور يـأتي عـلى كلامـه هـذا حتـى قاطعتـه مريـم بقولهـا لـه قـد حـان العـود إلى المبيـت ويجـدر بنـا أن نـسرع الخطـى إليـه لنسـكن عصافـير البطـون الصائحـة فانقطـع عـن كلامـه حينئـذ وشرع في المسـير بلفيـف العائلـة حتـى إذا انتهـوا جميعهـم إلى مقامهـم عكفـوا عـلى خـوان مُلئـت حياضـهُ ونـوَّرت رياضـة فهنأهـم طعامـه ومرأتهـم ألوانـه ثـم انتظـم بهـم مجلـس الـراح وتناقلـوا الكـؤوس بالأفـراح وعلقـوا يغتبقـون بترنّـح ودلال مرتشـفين دم العنقـود عـلى نغـمات النـاني والعـود فأحيوهـا ليلـة سـاهرة تدفـق لهـم الـسرور مـن وجههـا ولمـع نـور البـشر في غرّتهـا حتـى إذا اسـتهواهم النعـاس ذهـب كل منهـم إلى مرقـده بلسـان بنـثر مـن درر ثنائـه عـلى تلـك الروضـة الغنّـاء وذلـك الطالـع الميمـون.

الفصل التَّاسع والعشرون
في المكسيك وأحوالها

•••

كان في أحد الأيام بعد أن رجع بهيج من مكتبه وعادت نظيرة وبديعة من مدرستهما وقفل منصور من مخزنه وفرغت مريم من مهامها البيتيّة وانتظم شمل اللفيف أن اقترح منصور على أفراد العائلة موضوعاً استوصفهم به تاريخ البلاد المكسيكية وأحوالها السياسية وما هي عليه من العمران والحضارة فهمت مريم بالحديث حسب مألوفها لكنها لم تقو على الأخذ به وهي لاهية تارة بالاستمتاع بمشاهدة أنجالها ومؤانستهم والوقوف على حركاتهم وطوراً بهبوب نسمات رقيقة كانت إذا سرت تذكرها بنسمات لبنان العليلة التي كأني بها تهبّ عليها من وراء جباله الشامخة وخلال رياضي الأريضة وحاولت كل من نظيرة وبديعة الاقدام على طرق ذاك الموضوع فأحجمها عنه تغنّجاً ودلالاً وقد شُغلا ببعث رسائل أشواقها في غلاف أفكارهما إلى مدينة شيكاغو ليقرياها السلام ويبثّاها الصبابة واعدين إياها بالعود إليها إبّان سنوح الفرصة لأنهما قد شيّدا لها في ربع الفؤاد منازل حبّ لواؤها علم الاخلاص وشعارها راية الثبات على العهود. فصوّب منصور حينئذ طرفة في بهيجه وقال له أن لكل من والدتك وشقيقتيك يا بني شواغل قعدت بهنّ عن الاجابة إلى اقتراحي وتلبية رغبتي فعليك لا عدمتك أن تحقّق آمالي وتصدق أماني بما أعهده بك من القطانة والذكاء على حداثة سنّك بحيث يكون وصفك طالعاً من ملبسَي الرقة والجزالة في أبهى طراز.

بهيج: لك ذلك سيدي وحباً وكرامة: ثم أخذ بسياقة أحوال البلاد وما عرض لها من التقلبات على كرور الأجيال ومرور الأعوام فقال لا فضّ فوه ولله هو وأبوه.

إن المكسيك لما كانت من إحدى البلاد الواقعة بين دائرتي الجدي والسرطان كان مناخها بالطبع حامياً والحرارة فيها شديدة لافحة بالغة كل مبلغ في جميع أنحائها والسنة فيها تنقسم إلى قسمين متباينين يشتد اختلافهما ظاهراً من الشمال إلى الجنوب هما القيظ أو الفصل اليابس والشتاء أو فصل الأمطار فهذا الآخر هو في شمال المكسيك قصير قصره في نواحي الصحراء بل أَحرِ به أن يعدّ سدى أما في جنوبيها فهو بالعكس طويل ذو أهمية طوله في السودان وقد قسم أهل الجغرافية هذه البلاد إلى ثلاث مناطق يختلف فيها المناخ على اختلاف مواقعها أولاها الأراضي السخنة (Tierras Calientes) ويُراد بها الأقاليم الوطيئة المطمئنة وحالة جوّها دائمة الحرارة والرطوبة لا تتغير لشيء والجنس الأوروبي يتعوّذ من نحوسها ومشائمها لأنها سيئة بعينه ثقيلة عليه: ثانيتها الأراضي المعتدلة (Tierras Templades) أي التي يتدرّج ارتفاعها من الألف إلى الألفين متر وهي ذات حرارة تتراوح درجتها دائماً بين الثالثة والعشرين والخامسة والعشرين من غير تغيير يعرض عليها لشيء فهذه المنطقة لا يتكدّر أبداً صفاء سمائها ولا يُشعر باشتداد حرّها أو بقرس بردها: ثالثتها الأراضي الباردة (Tierras Prias) والمراد بها الأقاليم المرتفعة ذات الصرود الشامخة التي مهما وصفت من شدّة بردها وسبرات قرّها لا أفي بالمقصود لا سيما إذا ما صرّت ريحها الشمالية وازمهرت غدواتها القادسية.

أما شواطئ سواحلها فهي من الناحية الغربية مرتفعة مقتدة على طول البحر الباسيفيكي الذي تلطم أمواجه لحف الجبال الممتدة فوقه وتتكسر عليها وإنما تحتاطها (أي السواحل) وتحف بها بعض غدران وبطائح قريباً من ميناء أكابولكو (Acapulco) ومن الناحية الشرقية عند خليجها المعروف باسمها (أي خليج المكسيك) تفصل بين الجبال والبحر أراضٍ رملية منخفضة تنتهي عند بحيرات غير عميقة قد كثرت فيها الجزر ولهذا السبب كانت موانيها وجودة مراسيها في غاية الندور حتى لا تكاد تتجاوز الأربع.

أما الأنهار في البلاد المكسيكية فليس لها عظيم أهمية وكبير شأن وكلها قليلة المياه ليس فيها من زُفر وإنما اشتهر بينها بطوله لا بغزارة مياه الريو كرندي (Rio Grande del Norte) ويقرب منه ريو سانتياغو (Rio Santiago) وهو الذي تصب في مياه بحيرة كابالا (Chapala) فيجري بها في مواضع عالية أو شلالات تنحدر منها مياهه باندفاع شديد حتى تصبّ في البحر الباسفيكي.

أما البحيرات فكثيرة في الأراضي المكسيكية ومن مشاهيرها بحيرة تاكساكو (Texoco) المجاورة للعاصمة لكنها جميعاً آخذة في الهرم والانتقاص.

مص: دعنا من هذه الأمور فلا عائدة علينا منها ولا فائدة لنا بذكرها واشرح لنا مصادر ثروتها فهي عندنا من الأهمية بمكان لأنه منها تُستدر لنا مناهل الرزق وإليها تتّجه منازع تجارتنا.

بهيج: لم أذكر سيدي ما ذكرت إلا لأن شقيقتي نظيرة ووديعة مولعتان بالتنزه والمنتزهات ويهمها الوقوف على محالها ومواقعها وأي شيء

لعمري تنشرح له الصدور وتبتهج بنظره العيون مثل المياه يترقرق تدفقها في نهر جرّار من مثل ريو سانتياغو ويتفنّد تسلسلها في حوض ثرثار نظير بحيرة كابالا وينحبس تجعّدها في بحيرة ركدت رياحها كتاكساكو فوالحقيقة أنها لمجالس أُنس تحتفل بزائريها إذ تجعلهم يتلافون فائت الحظّ بما يتقاضونه لدي مرائيها البديعة من دواعي الطرب والهناء وعليه فلا حرج عليّ بذكرها والدلالة على مواقعها تنزيها لخواطر الشقيقتين ليقصداها إذا ما أخذها غمّ أو ضاف وسادهما همّ.

والآن إذ طالبتني بيان ثروتها المعدنية أقول ونعم القول إن لها من عريق الذكر ما نظم حاشيتي البر والبحر فكم من مناجم فيها للزئبق والبلاتين (الذهب الأبيض) والنحاس والرصاص والحديد والمغناطيس والفحم الحجري والكبريت والنفط وكلها فيها بكثرة وافرة والمكسيك تفوق جميع الممالك بغزارة معادنها الثمينة المغشّاة حجارتها بالوشاء الذهبية والفضيّة لأن أربعة أخماس مساحتها تشغله المناجم المدنية والله درّ ذلك الجوالة الذي قال «من البين الواضح أن ثروة المكسيك المعدنية التي سُبرت لهذا العهد بالتعدين وتم استنفاضها واكتشافها حتى يومنا هذا لا تُعتبر إلا كقطرة من قطرات المحيط إذا ما عارضناها بالمناجم غير المعدّنة التي لا تزال مدفونة في تُرب جهاتها المختلفة»:

م م: قد قضيت يا بني لبانات الأفئدة لكل من شقيقتيك بذكرك لهما مواقع الأنهار والرياض وحققت رغائب والدك بشرحك له ما تهمّه معرفته من المعادن وثروتها أفلا تصدق والحالة هذه أماني والدة

ترغـب في الاطـلاع عـلى سـكان البـلاد وتفـرُّع عشـائرهم وتنـوّع خلائقهـم لأحســن معاطـاتي معهـم وإدارة أحـوالي بينهـم حتـى إذا عرفـت حسـن أطوارهـم وقبحهـا أعنـت نفـسي عـلى مـا يوافقهـا مـن الحسـن واحتلـت عـلى صرف مـن أعاشرهـم عـما يهوونُـه مـن القبـح بألطـف حيلـة وأجمـل وسـيلة.

بهيـج: افعـل ذلـك وكرمـةً عـينٍ بحيـث تطيـب نفسـك وتقـرّ ببهيجـك عينيك: فاعلمـي أن سـكان البـلاد يربـون عـلى أحـد عـشر مليونـا و٨٨٥,٦٠٧ وهـم آخـذون في النمـو والزيـادة لكـن المكسـيك عـلى انفسـاح مسـاحتها لا يشـغل الكيلـو مـتر المربـع منهـا سـوى ٦ أشـخاص رغـماً عـن ذلـك النمـو وتلـك الزيـادة. وأنسـابهم يتشـعّب أصلهـا إلى ثـلاث فـرق وثنيَّـة: أولاهـا الهنـود وهـم ذريـة الأسـباط التـي كانـت تعمـر المكسـيك قبـل احتـلال الاسـبانيين لهـا وقـد كانـوا مـن ذلـك العهـد عـلى جانـب مـن المدنيـة والحضـارة فلـما افتتـح الاسـبانيون بلادهـم أخـذوا هـم يضطهدونهـم بعنـف وقسـوة ليقرضوا ذريتهـم ويسـتأصلوا شـأفتهم فلـم يفلحـوا إلى أن عـاودوا الكـرَّة عليهـم بجيـوش جـرّارة مـن عشـائر متنوعـة أخصّهـا عشـيرة الازتاكيـين Azteques)) فضربـوا عليهـم ضراء الأسـد عـلى فريسـته وتسـاهموا مواطنهـم بعـد أن أدركهـم الوهـن والفشـل وطرقهـم الاعتـلال: ثانيتهـا البيـض والشراوليّـون والاسـبانيون الذيـن اسـتوطنوا المكسـيك والانكليـز الامـركان الذيـن تقاطـروا إليهـا زرافـات لتعديـن مناجمهـا وايجـاد الصنائـع والفنـون فيهـا: ثالثهـا الماتيّـون (Metis) وهـم أخـلاط مـن سُـلالتي الفرقتـين الأولى والثانيـة في الهنـود والاسـبان ولهـؤلاء في الغالـب مـا للذريـة الاسـبانية مـن الأطـوار والأخـلاق والمعاتـب.

فهذه الفرق الثلاث يقرنها الآن ببعضها رباط دين واحد هو الكاثوليكية وتوحدها لغة واحدة هي الاسبانية السائدة في جميع مدنها ومحافلها وهي اللغة الرسمية في كل منتدياتها بيد أن ما دبّ في قلوب هذه القبائل المختلطة من عقارب الحسد وثار في صدورهم من كمين الضغن والإحنة قد فصل بين تاريخهم وخلقهم ولذلك فطالما نشبت بينهم المنازعات الأهلية والثورات الوطنية.

التي تعددت في المكسيك تعدّدها في جمهوريات أمريكا الجنوبية الآهلة بشعوب مختلطة من أعقاب تلك الفرق الثلاث التي سبق لنا الكلام عنها.

أما المكسيك فبعد أن تحررت في خلال ١٨١٠ إلى ١٨٢٤ من أيدي الاسبانيين الذين افتتحوها ١٥١٩ تألفت فيها جمهورية تشتمل ٢٧ ولاية متحالفة وسكنت على نحوٍ ما سورة الثورة فيها وخبأ ضرامها لكنها ما فتئت عرضة لسهام النائبات لتضارب آراء ندوتها واختلال أحكامها الفوضويّة إلى ١٨٦٧ حيث تنظّمت أحوالها وسدّدت أمورها وسارت على خطّة سويّة استذرى المكسيكيون معها بظل السكينة ونزلوا أكناف الأمان ولهم الآن نفس النظام الإداري الذي تُساس به الولايات المتحدة فافترّ لهم والحالة تلك ثغر النجاح فازدادت في بلادهم الخطوط الحديدية حتى شغلت ١١,٤٠٠ كيلو متر وأهمها سكّتان توصل البلاد بالولايات المتحدة وبلغت الزراعة عندهم ذرى الكمال ونمت الصنائع وهي لا تزال آخذة في الانتشار والاشتهار ومُهّد لتجارتها قدم الفلاح فراجت سوقها ونمت مكاسبها حتى بلغت في السنين الأخيرة ٦٥٠ مليوناً بعد أن

كانـت نحـو سـنة ١٨١٠ لا تتخطـى المليونـين. وظبـي الـكلام أن المكسـيك قـد بلغـت بتقدّمهـا إلى رفعـة لا تُسـامي واللـه أعلـم بمـا يعـدّه لهـا المسـتقبل مـن منـازل الترقـي ومعـالي الاقبـال.

فصفّقـت حينئـذ مريـم بيديهـا طربـاً واستبشـاراً ببهيجهـا وقـد وجـدت بنجابتـه وسـمو إدراكـه وطلاقـة طلعتـه بَـرد كبدهـا وقـرّة عينهـا ولمعـت صفحـة منصـور تهلّـلا فصغـى إلى وحيـده بـودّه وآثـره بإعـزازه إذ رأى أن الدهـر أسـعفه بمـراده فجـاءت آمالـه ببهيجـه مذيّلـة بالنجـاح والفـلاح وتهافتـت كل مـن نظـيرة وبديعـة عليـه يعانقانـه ويذبـلان مراشـفه بلثمات حلـوة وقبـلٍ سـكريّة وقـد أعجبهـا وصفـه عـلى صغـره وراقـت لهـما تخيلاتـه واسـتطابا عـلى اثـر كلامـه البـلاد المكسـيكية فاسـتوطناها واسـتعذبا طـب الاقامـة فيهـا ولذلـك قـد تأهّـلا في ربوعهـا كـما سـترى.

الفصل الثَّلاثون

في أفراد العائلة المنصورية وزواج نظيرة وبديعة

•••

قد قدمنا في فصل سابق أن الله رزق المنصورين قبل أن تبتهج عيونها بمشاهدة بهيجهما أولاداً أُناثاً تسببن لهما بالأفراح الضافية لأنهنّ أسفرنَ على مثال أبويهنّ ذوات شمائل محمودة بنفوس نبيلة وطباع حليمة لا يروعها رائع ولا يستخفها غضب أو طيش وقد تألّق على جبين كل منهنّ ضوء البشر واطّرد في وجوههنّ ماء الأنس والطلاقة ولم يكن ليثني أعطافهنّ زهوٌ أو تيه لما حُزنهُ من فضل الله من كرم الأصل وسعة العيش وظرف المحاضرة وفكاهة الأخلاق لأنهن تجمَّلن بجناح خافض ونفس متطأمنة وديعة تتجافى عن مقاعد الكبرياء وتنأى بهن عن مذاهب العجب والخيلاء، وما ذلك إلا لأن منصور لم يضنّ عليهن بالتهذيب والتأديب وقد أدخلهن معاهد العلم وأوردهن عن صغرٍ مواردهُ حيث ارتوين من مناهل الأدب وتخرَّجن باللغتين الانكليزية والاسبانية وبالرياضيات وفنون الموسيقى فضلاً عن سائر المهام البيتيّة التي أجدن احترافها واتقنّ معرفتها وهنا لا بأس علينا إذا ذكرنا للقارئ اللبيب أسماءهنّ وفي ذكرها مندوحة لسياق حدثنا ومدعاة لإنجاز روايتنا.

فأكبرهنّ نظيرة وهي بكر المنصورين وتليها بديعة فهاتان بعد أن أحكمتا دروسهما في مدارس شيكاغو والمكسيك رغبا كلاهما في الاقتران ومالا إلى العيشة المشتركة فإذن لما أبواهما بذلك واختارا لهما زوجين

مـن أدبـاء الجاليـة السـورية في الأصقـاع المكسـيكية فعُقـد لنظـيرة في ٤ أيلـول سـنة ١٩٠٤ عـلى الشـاب اللّـين العريكـة والرقيـق الحاشـية والسـليم السريـرة سـليم أفنـدي المنجـا... أحـد أوجـه حـدث الجبـة مـن أعـمال قضـاء البـترون في جبـل لبنـان وللـه درّ مـن قـال مهنئـاً:

مـا كنـت أعهـد قبـل أربعـة خلـت مـن فائـتٍ بزهـا الـسرور نضـيرة أن السـليم سريـرة يلقـى لـه مـا بـين ربَّـات الحجـالِ نظـيره وزفّـت بديعـة في ١١ حزيـران مـن السـنة المنصرمـة أي ١٩٠٦ إلى الشـاب الأديـب الـرضي الأخـلاق والسـعيد الطالـع حنـا روفائيـل سـعيد الشرتـوني اللبنـاني أيضـاً. ثـمّ وهيبـة التـي لا تـزال وشـقيقيها بهيـج وعجيـب في المعاهـد العلميّـة. وبسـمة وهـي التـي قدَّمنـا بفرصـة مولدهـا تهانينـا الأهليـة المنصـور حيـث قلنـا مؤرخـين سـنة بروزهـا لعـالم الكـون:

لحاني فوادي إذ زففت لسـيدي

فروض تهانٍ دون مريم في بَسـمَه

فقـال لقد أخفرت ويحكَ فاصلاً

وفصلُهـا بالَّـشرع يُحظَـرُ والذمَّـة

فقلـت له مهلاً أيا قلبُ إنني

وفيّ عهودٍ قال وَفٍّ بلا قِسـمَه

فقلت ثغورُ البشر قد بسـمت لنا

غداةَ بدت أرَّخُت من ثغرها بَسـمه

وآخر ولدٍ رزقهما الله هو يوسف الذي وافاني منذ أيام اعلامُ تنضُّرِهِ والرواية ماثلة للطبع فكان مولده في ٢١ أيلول من العام المنقضي واعتماده في ١٦ كانون ١ من العام نفسه ولا تسل عن مجالي الاحتفال التي وفرها منصور ليوسفي يوم اعتماده ولآنستيهِ يوم زفافهما قفي المكسيك قوم عاينوا من أريحية كرمه ورحب صدره وبسطة كفّه ما عاينوا فانكفؤوا وهم يتلون آيات التعظيم والانذهال ويردّدونها بالإعجاب والثناء وقد شهدوا كبيرهم وصغيرهم غريبهم ووطنيُّهم خطيرهم وحقيرهم بتفرُّد ذاته في تلك الأصقاع بشهامة تفسير وعلو همته وسماحة أخلاقه فلا بدع والشأن ذلك إذا نظمنا درر محامده في سمط هذه الرواية ونضَّدنا لآلئ مكرماته في سلك تلك السياحة التي طوقنا جيدها وزينَّا نحرها بقلائد محاسنه ولا غرو إذا نشأ بنوه في غضارة العيش ومهاد الترف وأقاموا تحت رواق عزّه وظلال مجده آمنين يسحبون أذيال الغبطة من غير همّ يأخذهم ولا فاجعة تنتابهم ولا عجب إذا زففنا إليه عن بعد الديار خرائد المدح والثناء وردّدنا في مختتم هذه الرواية أي تهانينا الخالصة بنجاح أسرته داعين له ولما بمزيد الترقي والاقبال في ظل المليك المفدّى صاحب الشوكة والجلالة خلّد الله أيامه بالنصر والظفر فلا برحت العائلة المنصورية في أيام عظمته منتطقة نازلة أكناف الأمان ولا فتئ الهناء يميد بعطفيها والترف يخيّم عليها ما برق الآل وهل الهلال.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان